د. نادية الشرقاوي

منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى



منهج القرآن الكريم في الرد
على المخالفين من اليهود والنصارى

نحو فكر

حضاري متجدد

الكتاب: منهج القرآن الكريم في الرد عل المخالفين

من اليهود والنصارى

تأليف: د. نادية الشرقاوي

الإصدار الأول 2010 م

نيسان - أبريل

عدد النسخ: 1000/ عدد الصفحات: 216

الغلاف: م. جمال الأبطح

التدقيق اللغوي: مظهر اللحام

الإشراف العام: يزن يعقوب /جوال 00963 933 418 181

الإخراج الفني: فؤاد يعقوب /جوال 00963 933 902 764

سورية - دمشق - ص.ب: 3397

هاتف: 095 13 22 11 00963

تلفاكس: 013 33 22 11 00963

www.darsafahat.com

info@darsafahat.com

الترقيم الدولي ISBN

978-9933-402-46-4

منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى

د. نادية الشرقاوي

صفحات للدراسات والنشر

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

صدق الله العظيم

إهـــــداء

إلى من أوصاني ربي بهما خيراً،

إلى من كان همّهما هو تعليمي، فقدما كل ما يملكان في سبيل

تنوير الطريق لي، وكانا ينتظران معي بصبر لحظة النجاح،

فكانت فرحتهما تبعث في نفسي الأمل، وتزيد إصراري على إتمام رحلتي العلمية،

إلى أبي وأمي العزيزين،

جزاهما الله تعالى عني خير الجزاء،

إلى إخوتي الكرام مصطفى، سميرة، محمد،

إلى طلبة وحدة المناظرات الدينية

الذين عشت معهم أطيب فترات الدراسة،

إلى كل صديقاتي.

إهداء خاص

إلى رفيق عمري الذي تقاسم معي الحياة بمرها وحلوها،

فكان يخفف عني متاعب البحث وعناءه،

ويزيد عزيمتي عندما أفقد الصبر،

إلى زوجي يوسف،

إلى مهجة عيني وقرتها اللذين ملأا حياتي فرحة وبهجة،

إلى ولديّ صفي الدين وسامي.

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة هذا الجهد،

وأسأل الله تعالى أن يكافئهم، ويجازيهم خير الجزاء.

كلمة شكر

إلى أستاذي الكريم الدكتور التهامي الراجي الهاشمي،

أتقدم بجزيل الشكر والامتنان على كل ما بذله معي من جهد

يخفف عناء البحث، ويهوّن طريق المسيرة العلمية،

أسأل الله العلي القدير أن يجازيه عني خير الجزاء،

ويبارك لنا في عمره،

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى مشايخي وأساتذتي الكرام،

وإلى كل من ساهم في إنجاح هذا العمل بتوجيه أو نصيحة.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه الطاهرين.

إن المراجِع للأحداث التي عرفها العالم، والمتتبع لها في العقود الأخيرة من القرن العشرين وحتى مطلع هذا القرن يلاحظ أن الفكر الديني أصبح لا يقل أهمية عن الفكر السياسي والاقتصادي، وله من التأثير والسيطرة ما لهما في تحريك العالم وتسييره وتدبيره، ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على وسائل الإعلام المحلية والدولية، حتى نلمس وندرك مقدار الحضور الفعلي للدين وسيطرته على قادة هذا العالم دينيين وعلمانيين على السواء، بل نجده أكثر تأثيراً وتوظيفاً عند العلمانيين أكثر من غيرهم، ولعل خير دليل على ذلك بروز تلك الكتابات والنتاجات الفكرية على الساحة الدولية في موضوع الحوار بين الثقافات والأديان، ما يؤكد أن العصر بعد سقوط المعسكر الشرقي هو عصر تدين بامتياز.

وتتجلى أهمية الحضور الديني في مختلف الأوساط العالمية في ذلك الاهتمام البليغ الذي توليه اليوم المؤسسات الجامعية للفكر الديني، وحرصها على تدريس علم مقارنة الأديان، هذا العلم الذي لم يُعرف في أوروبا إلا مع مطلع القرن التاسع عشر، لكنه تطور خلال القرنين الماضيين على نحو مهول، وعرف مع الغرب نقلة نوعية، خصوصاً بعد تحررهم من قبضة الكنيسة، واقتحامهم مجال تفسير النصوص المقدسة بعيداً عن توجهاتها، حتى أصبح الكثيرون يتوهمون أن علم مقارنة الأديان مكسب من مكاسب الحضارة الغربية، وحقل معرفي من حقول المعرفة الغربية الحديثة، وأن المسلمين لا حظ لهم فيه، وأنهم عالة على غيرهم في هذا العلم.

وهنا تطرح أسئلة مهمة:

ألم يعرف المسلمون فعلاً في فترات أوج الحضارة الإسلامية علم مقارنة الأديان؟، ألَم يُثر القرآن، وهو المصدر الأول للمعرفة في الإسلام، أموراً تخُص أتباع الأديان المخالفة؟، خَصوصاً أنه ادعى أنه الكتاب الخاتم والمهيمن والمصحح لما سبقه من الكتب السماوية.

أليس علم مقارنة الأديان علماً أصيلاً في الفكر الإسلامي؟، وأنه استمد جذوره من القرآن، وترعرعت أغصانه مع علماء الإسلام؟.

لاشك في أن معجزة نبي الإسلام تختلف عن معجزة باقي الأنبياء والرسل، لم تكن معجزة اللحظة التي بعث فيها محمدﷺ، كما لم تكن معجزة خاصة بقومه ﷺ فقط، وإنما كانت معجزة خالدة، تتوارثها الأمة الإسلامية جيلاً بعد جيل، ودستوراً للناس

جميعاً، لا تحدها حدود الزمان والمكان، إنها معجزة القرآن، ذلك الكتاب الذي وصفه الحق سبحانه وتعالى بأنه أحسن الحديث، فقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[1]،وهو الكتاب الذي كفل الله ﷻ حفظ لفظه ومعناه، حيث لا يتطرق إليه احتمال نقص أو زيادة أو تحريف أو تغيير، وهيأ لحفظه طرقاً ووسائل عدة، لا يجدها الباحث قد توافرت لكتاب من الكتب أو لنص من النصوص، سواء أكان سماوياً أم وضعياً في تاريخ البشرية جمعاء، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[2].

كما أظهر الله ﷻ به صدق نبوة رسوله الكريم محمد ﷺ، وجعله حجة وبرهاناً عليها، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[3].

هذه الأمور الكثيرة والمختلفة ميزت القرآن، وجعلت كل الأنظار تتجه إليه، كونه وحياً جديداً، يعلن صراحة فساد الأوضاع التي وصلت إليها البشرية بسبب تعدد الأديان واختلافها وانحراف الناس عن الطريق المستقيم، ويحاول إصلاح ما أفسده أتباع الأديان السماوية، بما أحدثوه في كتبهم من تحريف وتغيير وتبديل، بعدِّه الكتاب الخاتم والمصحح والمهيمن، ويقدم دين الإسلام حلاً بديلاً عقائدياً وإنسانياً، مرتكزاً في ترسيخ هذه المبادئ على وسيلة الحوار.

ولذا كان طبيعياً أن يواجه القرآن من طرف خصومه معارضة عنيفة، فقد وقف الناس منه موقف الإيمان والكفر، فآمنت طائفة منهم، وكفرت طائفة، وقد كان على رأس هذه المعارضة أهل الكتاب، خصوصاً أن القرآن فتح باب الحوار والمناقشة مع هذه الفئة، وردَّ مزاعمها التي تزعمها، مستغلة في ذلك أمية العرب وجهلهم بالكتب السماوية.

من هذا المنطلق كان اختيارنا لهذا الموضوع الذي يهدف إلى إبراز المكانة التي يحتلها علم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، ويسعى إلى بيان منهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، وقد احتاج هذا العملُ إلى استخراج الآيات القرآنية التي

1- سورة الزمر، الآية 23.

2- سورة الحجر، الآية 9.

3- سورة النساء، الآية 174.

وردت بشأن اليهود والنصارى، واستنباط أحكامها وتتبع معانيها بالدراسة والتحليل، حتى يتسنى لنا الاستفادة من المنهج الذي وضعه القرآن في عصرنا الحالي، ومن ثم استثماره في موضوع العلاقة بين الأديان السماوية، وإمكان الحوار بين أتباعها، وذلك من أجل الإجابة عن الكثير من التساؤلات المثارة حالياً.

وقد تتبعتُ في هذه الدراسة منهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، محاولةً الإجابة عن سؤال مركزي هو:

ما أهم القضايا التي اهتم القرآن بعرضها في مناظرته لليهود والنصارى؟.

ويتبع هذا السؤال المركزي أسئلة فرعية منها:

ما مزاعم أهل الكتاب ودعواهم التي وقف القرآن للرد عليها؟.

كيف واجه القرآن هذه الدعاوى، ورد الأمور إلى نصابها بإقرار ما كان حقاً منها وتفنيد ما كان باطلاً؟.

كيف أولى القرآن أمور العقيدة اهتماماً خاصاً، وعني بتصحيحها أكثر من غيرها من أمور الشريعة بعدّ العقيدة ركناً ثابتاً، لا يقبل النسخ في الديانات السماوية؟.

من أجل هذا جرى الرجوع إلى مجموعة من المصادر والمراجع، مع الاستفادة أيضاً من الوسائل الحديثة في البحث العلمي كالانترنيت والأقراص المضغوطة، كما جرى الوقوف على الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع من أجل تصنيفها بحسب المواضيع، والتعامل معها مباشرة لتيسير عملية البحث التي واجهت فيها بعض المشكلات والصعاب، سواء على مستوى توافر الكتب أم على مستوى بعض المشكلات الجانبية المؤثرة في مسيرة البحث، ولا أنكر أني وجدت كتباً غنية الفائدة جرى اعتمادها، منها كتب التفسير والسيرة النبوية، ومنها ما له علاقة بعلم مقارنة الأديان ومناهجه، ومنها ما هو في مواضيع مختلفة، وقد جرى الرجوع إلى السيرة النبوية، لأنها تقدم النموذج التطبيقي للنص القرآني في تمثيل العلاقة بين المسلم وأهل الكتاب، في شخص النبيﷺ الذي رسم الخطوط العريضة لهذه العلاقة في تعامله مع اليهود والنصارى.

وتتلخص مواضيع هذه الدراسة في فصل تمهيدي وبابين وخاتمة، أما الفصل التمهيدي فقد تحدثت فيه عن التأسيس القرآني لعلم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، ولاعتقادي أن هذه الدراسة تدخل في إطار هذا العلم كان لزاماً علي أن أبرز

دور القرآن في إرساء قواعد هذا العلم وأسسه، وأبين سبق كتاب الله تعالى في اهتمامه بالعقائد المخالفة وعرض أقوال أصحابها ومناقشتها، وفتح باب الحوار أمام الآخر.

أما الباب الأول فتطرقت فيه إلى منهج القرآن في الرد على اليهود، وذلك خلال ثلاثة فصول، ذكرت في أولها أسباب إنكار اليهود لدعوة النبي ﷺ ودوافعه، وبينت في الثاني منهج القرآن في نقض المزاعم اليهودية، أما الفصل الثالث فعرضت فيه منهج القرآن في تصحيح قضايا العقيدة التي خضعت للتحريف والتبديل.

أما الباب الثاني فخصصته لمنهج القرآن في الرد على النصارى، وذلك خلال فصلين، بينت في الفصل الأول اهتمام الإسلام بالمسيح عليه السلام وبالوسط الذي نشأ فيه، والمكانة الرفيعة التي يحتلها السيد المسيح وأمه عليهما السلام، أما الفصل الثاني فعرضت فيه منهج القرآن في إبطال عقائد النصارى.

ثم الخاتمة، ووضعت فيها النتائج المستخلصة من هذه الدراسة.

فصل تمهيدي

التأسيس القرآني لعلم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي.

المبحث الأول

القرآن النواة الأولى لعلم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي

أكَّدت الدعوة القرآنية منذ بداية نزول الوحي أن الرسالة الإسلامية رسالة عالمية، انطلقت بأمر الله تعالى، من البيئة الصغيرة التي كان يعيش فيها النبي: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] إلى المحيط الخارجي الذي يضم شبه الجزيرة العربية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾[2]، لتعُمَّ مشارق الأرض ومغاربها، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[3]، ولم تضع أي حدود بينها وبين العالم الخارجي، فلم يكن الجنس أو اللون أو الدين حاجزاً أمام انتشارها، وكتب السيرة والتاريخ الإسلامي أكبر شاهد على هذا الأمر.

بهذه الدعوة أحدث القرآن تغييرات جذرية داخل الوسط الذي ظهر فيه وخارجه على المستوى السياسي والفكري والاجتماعي، برفعه قناع الصمت عن مجموعة من الأشياء، وتغييره لعدة مصطلحات، فكسّر أفكاراً ألفها الناس، وجعلوها عادات تحكم حياتهم، وقوانين يستحيل خرقها من طرف أحد، وديانة يعدّ الخارج عنها مارقاً، ما جعل الدعوة القرآنية تواجه معارضة عنيفة من طرف أشخاص مختلفين، رابطهم المشترك الاستفادة من ترسيخ تلك الأنظمة للحفاظ على مكانتهم داخل المجتمع.

ولقد قادت هذه المعارضة هجوماً عنيفاً، ابتغت من ورائه التشكيك في الوحي وصدق نبوة محمد ﷺ، متخذة في ذلك أنماطاً متعددة وأساليب مختلفة في تعبيرها عن هذا الرفض، وبذلت فيه الغالي والنفيس، ومن أمثلة ما حكاه القرآن عنها:

1- سورة الشعراء، الآية 214.

2- سورة الشورى، الآية 7.

3- سورة الأعراف، الآية 158.

• اتخاذ الأموال للصد عن سبيل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (1).

• الكيد ومحاربة الجهر بالقرآن: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (2)، و﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (3).

وقد أكد القرآن أن هذه الحرب الموجهة ضد الإسلام وهو دين حق، ومحمد ﷺ وهو حامل حقيقي لهذه الرسالة، لن تنتهي، ولن يكف الأعداء والخصوم عن الإيذاء والمطاردة للمؤمنين به، وتوجيه الافتراءات ضدهم في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (5)، قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (6).

إن هذه الحرب التي حكاها القرآن نشبت مع نشأة الدعوة الإسلامية، منذ أعلن النبي ﷺ أنه رسول رب العالمين، وأن لا معبود إلا الله ﷻ، وأن الدين واحد هو الإسلام، وتطورت هذه الحرب مع الزمن، فالمشركون تارة يتصدون للنبي ﷺ بالتكذيب، ويقذفونه بالسحر والجنون والشعر، وتارة يتهمونه بأن الذي يعلمه بشر، وتارة يطالبونه بالمعجزات

1- سورة الأنفال، الآية 36.
2- سورة الحج، الآية 72.
3- سورة فصلت، الآية 26.
4- سورة البقرة، الآية 217.
5- سورة التوبة، الآية 32.
6- سورة يونس، الآية 39.

والخوارق طاعنين في صدق نبوته، ويحكي القرآن بعض ادعاءاتهم، يقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [1].

ولم يختلف الأمر لدى اليهود والنصارى، أو أهل الكتاب كما اصطلح عليهم القرآن، فقد جعل القرآن اليهود في مقدمة الذين يضمرون العداء العميق للإسلام، قال تعالى:﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [2]، وكتب السيرة والتاريخ الإسلامي تحدثنا أن أحبار اليهود وعلماءهم، كانوا لا يكفّون في حياة النبي ﷺ عن التشكيك في رسالة الإسلام، استكباراً وحسداً من عند أنفسهم، وتكفي شهادة حبر من أحبارهم الذين أسلموا، وهو عبد الله بن سلام ﷺ الذي قال عنهم: " إن اليهود قوم بهت "[3].

أما النصارى، وإن كان القرآن قد امتدحهم في بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[4] فقد كان مدحه خاصاً بأحوال معينة، تدخل في مقارنة شدة العداء للإسلام من طرف أصناف بشرية، تكنُ كلها العداء

1- سورة الفرقان، الآيات 4- 9.

2- سورة المائدة، الآية 82.

3- السيرة النبوية لابن هشام، قدم لها، وعلق عليها، وضبطها طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل، الجزء الثاني، ص 138.

4- سورة المائدة، الآيتان 82- 83.

للإسلام، لكن بدرجات متفاوتة، فاليهود والمشركون أولاً، ثم النصارى ثانياً، فقد "كانت مؤامرات اليهود ودسائسهم على الدين الجديد قد بلغت درجاتها القصوى، فهم لا يتوقفون عن تكذيب النبي ومعاداته وتأليب الأحزاب ضده وإغراء الشعراء بهجائه، وكانت مقابلة الأحباش في عهد النجاشي لوفد الهجرة الأولى في منتهى الكرم والأخلاق وتقبل الدين وعمق الخشوع، فقد روي أن الملك وصحبه لم يملكوا أنفسهم عن البكاء خشوعا لله عندما أنصتوا إلى جعفر بن أبي طالب، يتلو سورة مريم، ثم يتحدث عن الطبائع الكريمة التي يتحلى بها النبي محمد ﷺ، كان الموقفان متناقضين متباعدين، فكان في المقارنة بينهما إعلام وتعليم وتحذير وترغيب"[1]، فالموقف في الآية موقف مقارنة، وليس موقف مدح، يختص بأخلاق النصارى وتعاملهم مع المسلمين، وليس مدحاً لعقائدهم أو لدينهم، لذلك نجد القرآن في مواضع أخرى ذمهم، فذكر انحرافهم العقائدي بادعائهم الألوهية للمسيح عليه السلام، وافترائهم عليه بنسبة بنوّته لله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً–، فأبطل هذه البنوة والألوهية المفتريتين، ونقض عقائدهم المنحرفة كالتثليث والصلب.

ووقف القرآن موقف القوة أمام أهل الكتاب، فدعاهم جميعا إلى قَبول الحق والإذعان له، وإلى نبذ وتركه العناد، وفق قاعدة اللقاء والتقارب المبنية على الأسس التوحيدية التي دعا إليها كل الأنبياء والمسطرة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2]، كما دعا إلى مجادلتهم بالتي هي أحسن، حتى لا يؤجج في قلوبهم العصبية والعناد والحقد، خاصة أن رسالة الإسلام جاءت سالبة لكل مناصب الزعامة الدينية التي كانت لهم، وهي مهمة تنسجم ومنهج القرآن في الجدل والمناظرة.

ومما زاد في تأجيج الحرب بين القرآن ومخالفيه من أهل الكتاب شهادته على عدم صحة التوراة والإنجيل اللذين بين أيديهم، وإثبات التحريف الذي فيهما وبيان المسؤول عن هذا التحريف بقوله تعالى:﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ

1- "القرآن والمسيحية في الميزان، أحمد عمران، الدار الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1416هـ 1995م، ص 73- 74.

2- سورة آل عمران، الآية 64.

ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [1].

فكان القرآن واعياً كل الوعي بنشوب هذه الحرب، ووجود هذه المعارضة القوية التي تكيد له بمختلف الوسائل، **ولذلك كان كتاباً مفتوحاً أمام الآخر، لا يمنع خصومه من البحث فيه لإيجاد أي اختلاف أو تناقض بين آياته، واكتشافه بأسلوب المتحدي القوي**، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [2]، بل أكثر من ذلك جعل عدم التدبر ناتجاً عن انسداد الفكر وقصور العقل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [3]، **فكان بذلك كتاب جدل بامتياز**، ينهج منهج المناظر القوي، فيحدد أولاً القضايا والمواضيع التي ينوي معالجتها، ثم يبدأ بعرضها قضيةً قضية، ليقدم في النهاية الأدلة والبراهين على بطلانها أو صوابها.

فقدم نظرة جديدة إلى الآخر، اختلفت عن نظرة باقي الكتب السماوية من توراة وإنجيل، **فحضور الآخر أو المخالف فيه حضور قوي**، وهي حقيقة أساسية، لا يغفلها دارس منصف للكتب السماوية، تؤكد الاختلاف الكبير الذي بين القرآن وغيره من النصوص السابقة له، **فغياب النقد والحوار في التوراة والإنجيل وحضورهما القوي في القرآن نتيجة بديهية، يتوصل إليها الباحث** خلال القراءة الأولية لهذه النصوص، "فليس في التوراة ولا في الإنجيل أكثر من إشارات عارضة إلى الملحدين الذين ينكرون وجود الله، لأن أنبياء التوراة والإنجيل كانوا يخاطبون أناساً يؤمنون بإله بني إسرائيل، ولا يشكّون في وجوده، أما القرآن فقد كان يخاطب قوماً ينكرون، وأقواماً يشركون، وأقواماً يدينون بالتوراة والإنجيل ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة، وكانت دعوته للناس كافة من أبناء العصر الذي نزل فيه، وأبناء سائر العصور، ومن أمة العرب وسائر الأمم"[4]، أضف إلى ذلك أن الكتب الأخرى في ذكرها للمخالفين لا تسعى إلى دعوتهم للإيمان بها، وإنما ذكرتهم من أجل تحذير بني إسرائيل من التشبُه بهم، فلم تحتج إلى نهج أسلوب الإقناع، على عكس المنهج القرآني الذي من أسمى أهدافه هداية البشر إلى دين

1- سورة آل عمران، الآية 78.

2- سورة النساء، الآية 82.

3- سورة محمد، الآية 24.

4- "الله: كتاب في نشأة العقيدة الإلهية"، عباس محمود العقاد، دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة، ص 233- 234.

الإسلام، "ووصول الناس إلى الحقيقة بالطريقة التي تعمق الإيمان في نفوسهم، لذلك انطلق الإسلام من قاعدة أصيلة في تفكيره، وهي عدّ العقل قوة صالحة للحكم على الأشياء، وميزاناً يزن به صحة القضايا وفسادها"[1]، ولإيمانه بأن العقل هو الرابط المشترك بين جميع البشر جعله الحكَم والمرجع للفصل في كل النزاعات العقدية، لذلك نجد دعوة القرآن موجهة لذوي الألباب من دون غيرهم، فوصف كل مغيِّب لعقله بالضلال الذي لا يختلف عن ضلال الدواب: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[2].

وإذا نظرنا إلى كتاب التوراة وجدناه أخطر كتاب عنصري، يسخّرالحقد والكراهية للآخر، إذ ليس فيه متسع للآخر إلا في صورة عدو ومقاتل، أما الإنجيل فدعوته كانت محصورة في بني إسرائيل، تحاول أن تجذبهم من عالم المادية إلى عالم الروح، على حين لا يدعو القرآن - لكونه معجزة ذهنية - أتباعه للإيمان به بالإكراه، وإنما يستعمل منهجاً علمياً يعتمد الإقناع، **وهو بهذا يكون واضع القاعدة النظرية والنواة الأولى والمؤسس الأول لعلم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي**، فقد ورد فيه كثير من عقائد الناس وعباداتهم للمقارنة بينها وبين الدين الصحيح الذي أرسل به جميع الرسل، ودعا الناس إلى تمييز الحق ومعرفته بالنظر السليم وإعمال العقل واتباعه بعيداً عن اتباع الهوى والشهوات المؤدية إلى الزيغ والانحراف: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾[3].

"والواقع أنها سمة رئيسة في القرآن الكريم أنه يدعو الناس في كل زمان ومكان لاستخدام مداركهم العقلية في دراسة رسالة القرآن وتقويمها موضوعياً من حيث جدارتها وإعجازها من دون تصور سابق، لأن إعجاز القرآن بلغ مبلغاً لا يستطيع معه الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثله: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا

1- "الحوار في القرآن، قواعده، أساليبه، معطياته"، محمد حسين فضل الله، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الخامسة، 1987م، ص 23- 29.

2- سورة الفرقان، الآية 44.

3- سورة فاطر، الآيات 19- 22.

بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [1]، وفي هـذا التحدي ما يتضمنه من حث البشر على الإقبال على دراسة القرآن وتقويم مضمونه عقلانياً، وهو شيء فريد في تاريخ الأديان من حيث تأكيد عقلانية الدين، إذ تتكرر في الكثير من الآيات عبارة: أفلا تعقلون."[2]

كما قصّ قصص الأنبياء ومحاوراتهم لأقوامهم، وكيف بيَّنوا لهم الباطل وزيفه بدعوتهم بالحجة والدليل، وإقناعهم والسمو بهم فوق التقليد والتبعية، لسانهم في ذلك لا يختلف ولا يتباين، حتى لكأنهم رسول واحد على اختلاف الأزمنة واختلاف لغات الأقوام، معتمدين الدعوة إلى النظر في الآفاق والأنفس والآيات الكونية للوصول إلى تحقيق الوحدانية، وتنزيه الخالق ﷻ عن الشريك، وتوجيه العبادة له وحده ﷻ. وهذه نماذج من دعوة أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام:

- نموذج نوح عليه السلام: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [3].

- نموذج إبراهيم عليه السلام: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ

1- سورة الإسراء، الآية 88.

2- "المسيحية والإسلام والاستشراق"، محمد فاروق الزين، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1421هـ 2000م، ص 68.

3- سورة نوح، الآيات13- 20.

هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ (٦٦) أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[1].

- نموذج موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾[2].

- نموذج عيسى عليه السلام: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[3].

- نموذج محمد ﷺ: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (١١) قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (١٢) ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (١٣) قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[4].

1- سورة الأنبياء، الآيات 51- 67.

2- سورة طه، الآيات 49- 55.

3- سورة آل عمران، الآيتان 48- 49.

4- سورة الأنعام، الآيات 11- 14.

وفتح القرآن مجال المقارنة بين الأديان أمام العقل، ليكون الاختيار مبنياً على الصحة، مطالباً خصومه ومخالفيه بالحجة والبرهان على صحة ما يدَّعون وما يعتقدون قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [2].

ومن المهم أن نشير إلى أن العقل اتخذ مساراً مميزاً ومنهجاً جديداً في علاقته بالنص في الفكر الإسلامي، إذ لا يمكن الحديث عن من النص دون العقل، ولا عن العقل من دون النص، وهذا ما أكده علماء الإسلام، وعلى رأسهم الإمام ابن تيمية في كتابه: "موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول"، أو "درء تعارض العقل مع النقل".

نخلص من كل ما سبق إلى أن الكتابة في الأديان، وتفصيل عقائد الناس وعباداتهم، وكذا عقد المقارنة العلمية بينها من أجل تمييز الصحيح فيها من الفاسد، كما عرفه الحقل الإسلامي **كان منطلقها ومرجعها الأساسي القرآن، ما جعل اهتمام علماء المسلمين بهذا النوع من العلم مبكراً، ومنذ القرون الأولى للإسلام**[3] تجسَّد في الردود والتصانيف التي ألَّفوها لمقارنة القرآن بالكتب السماوية السابقة توراة وأناجيل، وبيان أوجه الاختلاف بينها، وإظهار مواطن الضعف في هذه الأناجيل والتناقضات التي تمتلئ بها للوصول إلى الحق، محتكمين إلى العقل، كما حثهم على ذلك القرآن.

ولعل دعوة القرآن إلى استعمال العقل كانت هي التوجيه الأساسي لتحقيق شروط المقارنة الصحيحة، "فقد ساق ألواناً مختلفة من الحجاج العقلي لبيان هدايته في إيقاظ

1- سورة الأنعام، الآيتان 148- 149.

2- سورة البقرة، الآية 111.

3- يذكر ابن النديم أن أحمد بن عبد الله بن سلام ترجم للخليفة هارون الرشيد التوراة والإنجيل، وأنه تحرى الدقة في الترجمة. من كتاب الفهرست لابن النديم، دار المعرفة، بيروت، 1398هـ - 1978م، ص 33، ما يؤكد وجود ترجمة عربية لكتب العهدين القديم والجديد منذ أواخر القرن الثاني للهجرة، ويذكر في مكان آخر أن الحسن النوبختي، وهو متكلم فيلسوف، كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة، مثل أبي عثمان الدمشقي وإسحاق وغيرهما... قد نسخ بخطه شيئاً كثيراً، وله مصنفات وتأليفات في الكلام والفلسفة وغيرهما، وتوفي وله من الكتب كتاب "الآراء والديانات" ولم يتمه"، الفهرست، ص 251.

العقل وتحريره من أغلال الجمود على موروث الأسلاف وتقليدهم في الأخذ بباطل عقائدهم، والاستمساك بفساد ضلالتهم من دون نظر، ليكشف عن حقيقة ما كان عليه أولئك الأسلاف سوى أنهم وجدوهم كذلك يفعلون، كما حكى الله عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ [1]" [2].

لقد سار علماء الإسلام وفق الطريق الواضح الذي رسمه القرآن لهم والمنهج القويم الذي سطره لهم، ولم يغفلوا دعوة القرآن إلى النظر والاستدلال لإثبات الحق ودحض الباطل، يقول الفخر الرازي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [3].

"واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد، منها وجوب النظر والاستدلال، وذلك لأنه تعالى بيَّن أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة فإنه يختار منها ما هو الأحسن والأصوب، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن والأصوب مما سواه لا يحصل بالسماع، لأن السماع صار قدراً مشتركاً بين الكل، لأن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ يدل على أن السماع قدر مشترك فيه، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع، وإنما يتأتى بحجة العقل، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل، وبناء الأمر على النظر والاستدلال" [4].

إن الرغبة المؤكدة في نصرة الإسلام والدفاع عن أسسه ومرتكزاته جعلت علم مقارنة الأديان منهجاً دعوياً وسلاحاً ضد الافتراءات الموجهة إلى الإسلام عموماً والقرآن خصوصاً، فأفرزت عبر التاريخ مكتبة ضخمة، يصعب حصر مؤلفاتها، برع أصحابها في

1- سورة الشعراء، الآيات 69- 74.

2- "الفرقان والقرآن"، الشيخ خالد عبد الرحمن العك، دار الحكمة، الطبعة الأولى، 1414هـ- 1994م، ص 185.

3- سورة الزمر، الآيتان 17- 18.

4- تفسير الفخر الرازي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1405هـ-1985م، الجزء 26، ص 261.

مجالات شتى في اللغة وعلم الكلام والفلسفة والتفسير والفقه والنحو والرحلة، وتباينت اهتماماتهم وانشغالاتهم العلمية.

ومن أهم هذه الكتب:

- الآراء والديانات لأبي الحسن النوبختي، تـ 202هـ.
- المختار في الرد على النصارى لأبي عمرو بحر الجاحظ، تـ 255هـ.
- "المقالات في أصول الديانات"، و"مروج الذهب" للمسعودي، تـ 346هـ.
- "الإعلام بمناقب الإسلام" لأبي الحسن العامري، تـ 380هـ.
- "التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة المعتزلة" لأبي بكر الباقلاني، تـ 403 هـ.
- "تثبيت دلائل النبوة" للقاضي عبد الجبار الهمذاني، تـ 415هـ.
- "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" لأبي الريحان البيروني، تـ 441هـ.
- "الفصل في الملل والأهواء والنحل" لأبي محمد سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، تـ 456هـ.
- "الملل والنحل" لأبي كريم الشهرستاني، تـ 548هـ.
- "إفحام اليهود" للسموءل بن يحيى المغربي، تـ 570هـ.
- "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" للإمام تقي الدين ابن تيمية، تـ728هـ.
- "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى" لابن القيم الجوزية، تـ 751هـ.

ولعل أسباب التأليف التي تضمنتها هذه المؤلفات تؤكد ما قلناه عن تسخير جهود العلماء للدفاع عن العقيدة الإسلامية ومرتكزاتها. يذكر الإمام ابن قتيبة سبب تأليفه كتاب "**تأويل مشكل القرآن**"، فيقول: "وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا: ﴿ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾ [1] بأفهام كليلة وأبصار عليلة ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة في اللحن وفساد النظم والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل، ربما أمالت الضعيف الغُمر، والحدث الغِرَّ، واعترضت بالشَّب في القلوب، وقدحت بالشكوك في

1- سورة آل عمران، الآية 7.

الصدور، فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن"[1].

ويحدثنا الإمام الباقلاني عن حركة الرد على الشبهات والافتراءات الموجهة إلى القرآن فيقول: "ولما كثرت المطاعن في القرآن، وأوشكت الشبهات أن تأخذ سبيلها إلى نفوس الأغرار والأحداث نهض فريق من العلماء يدرؤون عنه، وينافحون دونه، ويرمون من ورائه بالحجج النيرة والأدلة الواقعة، فشرعوا أقلامهم لتأليف الكتب والرسائل في الرد عليهم وتبيين مفترياتهم"[2]، وينبه الإمام الباقلاني على أن الطعن في كتاب الله ليس أمراً جديداً بل سبقت إثارته من طرف ملحدة قريش وغيرهم: "وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر، وقد سبقهم إلى عظم ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم"[3]، وهذا ما ذكره القرآن نفسه، فأعداء محمد ﷺ ومنكرو القرآن وخصوم الإسلام لن يكفوا عن الإيذاء وتوجيه الافتراءات لهذا الدين في كل زمان ومكان، وما زالت هجمات التشكيك التي يتزعمها المخالفون اليوم تردد صدى التاريخ، يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[4].

ويقول الإمام الباقلاني عن الدافع الذي دعاه إلى تأليف "إعجاز القرآن": "ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزمهم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواماً ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهاناً، ولمعجزته ثبتاً وحجة"[5].

واقتداء بالقرآن لم يقتصر علماء هذه الأمة على الدفاع عن أصول الإسلام، بل انصب اهتمامهم أيضاً على دراسة أديان الأمم وعقائدها، لبيان ما فيها من تناقض وتهافت، ولنقضها وتفنيدها مستنبطين حججهم من آي القرآن، ومؤكدين أن مرجعهم الأساس في ذلك هو كتاب الله، وفي ذلك يقول الجاحظ في كتابه "المختار في الرد على النصارى": "ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا إن عزيرا ابن الله، ويد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء، وحكى عن النصارى أنهم قالوا المسيح ابن الله، وقال:

1- "تأويل مشكل القرآن"، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة ابن قتيبة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، طبعة 1373هـ-1954م، ص 60.

2- "إعجاز القرآن" للإمام الباقلاني، تحقيق أحمد صقر، سلسلة ذخائر العرب 12، دار المعارف، طبعة 1963م، ص 7.

3- المرجع نفسه، ص 5.

4- سورة البقرة، الآية 217.

5- "إعجاز القرآن" مرجع سابق، ص4.

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [1] وقـال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [2]، لكنت لئنْ أخرَّ من السماء أحب إلي من أن ألفظ بحرف مما يقولـون، ولكـني لا أصل إلى إظهار جميع مخازيهم وما يسرون من فضائحهم إلا بالإخبار عنهم والحكاية منهم"[3]، ويقول الإمام ابن حزم بعد أن ذكر عقائد فرق النصارى: "ولـولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه، إذ يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [4]، وإذ يقـول تعـالى حاكيـاً عنـهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [5]، وإذ يقـول تعـالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [6] لمـا انطلـق لسان مـؤمن بحكاية هذا القول الشنيع السمج السخيف"[7]، ويقول في معرض كلامه عن اليهود بعد أن ذكر نصوصاً من التوراة في وصف الله تعالى: " ولولا ما وصفه الله تعالى من كفرهم وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [8]، و ﴿ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [9]، ما انطلق لسان بشيء مما أوردنا، ولكن سهل علينا حكاية كفرهم ما ذكره الله تعالى من ذلك"[10].

والخلاصة أن القرآن قد وضع النواة الأولى لعلم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي بتناوله علم تاريخ الأديان وعلم مقارنة الأديان، فهو في الجانب الذي يتناول فيه تاريخ الأديان عرَض سيرة الأنبياء وتاريخ بني إسرائيل وتاريخ بعض الأمم في سرد بعض الأحداث الدقيقة التي جرت بينهم وبين أنبيائهم، وفي الجانب الذي يتناول فيه علم الأديان قدَّم الأديان، سواء الكتابية أم غير الكتابية، وعرض أهم القضايا التي تتميز بها قاصداً من ذلك إظهار أهم الجوانب السلبية فيها وإبرازها.

1- سورة التوبة، الآية 30.

2- سورة المائدة، الآية 73.

3- "الرد على النصارى ضمن رسائل الجاحظ"، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الجزء الثالث، القسم الأول من الفصول المختارة من كتب الجاحظ، اختيار الإمام عبيد الله بن حسان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1411هـ - 1991م، ص 334.

4- سورة المائدة، الآية 72.

5- سورة المائدة، الآية 73.

6- سورة المائدة، الآية 116.

7- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، الإمام أبي محمد علي بن حزم الظاهري الأندلسي، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، الطبعة الثانية، 1416هـ-1996م، الجزء الأول، ص 111- 112.

8- سورة المائدة، الآية 64.

9- سورة آل عمران، الآية 181.

10- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 327.

وبدأت هذه النواة تكتمل وتنمو مع الدراسات العلمية والمؤلفات التي أشرنا إليها آنفاً، فكان المسلمون بذلك سبّاقين لغيرهم في وضع أصول هذا العلم وقواعده، **وبشهادة الغربيين يعدّ الإمام ابن حزم بكتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" رائد علم مقارنة الأديان ومؤسسها**، يقول آسين بلاسيوس:" إن ابن حزم ناقش المسيحية بجميع الحجج والمناقضات التي أوردها **بعد ذلك باحثو القرن الثاني عشر، وإنه كان أول محرك للمدرسة الحديثة للنقاد البروتستانتيين**"(1)، ولم يعرف عن الغربيين الاعتناء بهذا العلم إلا في العصور المتأخرة بعد عصر النهضة، حيث أرسلوا البعثات العلمية إلى الشرق الأدنى والأقصى للاطلاع على هذه الشعوب وثقافاتهم ودياناتهم، ولم تكن هذه البعثات إلا مقدمات للاستعمار، ثم تطور هذا العلم، فأصبح يبحث في نشأة التدين عند الإنسان وأوجه التشابه بين الديانات، وساعدتهم على ذلك التنقيبات الأثرية وتعلم اللغات القديمة، فأفادوا من ذلك في معرفة ما عليه عبادات الأقوام القديمة، فأكملوا ما بدأه المسلمون مع الفارق أن المسلمين يتميزون بالقرآن أصلاً، يرجعون إليه، فيصححون على ضوئه النتائج الخاطئة التي قد تتولد من النظر في العقائد القديمة.

1- "مدرسة ابن حزم الأوروبية في النقدية التاريخية للكتب المقدسة، رسالة في التسامح"، مقال للأستاذ محمد عمراني حنشي، موقع الانترنيت: **www.amrani.org/livers/ibnhazem.htm**.

المبحث الثاني
تصحيح القرآن للكتب السماوية الأخرى وهيمنته عليها

نأتي في هذا المبحث لبيان مسألة في غاية الأهمية، قد تشغل بال الكثير من الباحثين، وتتمثل في السؤال التالي: إذا كان القرآن قد نص على وقوع التحريف في الكتب السماوية السابقة، فكيف يكون مصدقاً لها ومهيمناً عليها في الوقت نفسه؟[1].

والجواب عن هذا السؤال هو موضوع هذا المبحث، وهو من الأهمية بمكان، إذ إن الكثير من المستشرقين المسيحيين يعدون هذا الموقف القرآني موقفاً متناقضاً، ويجعلون هذا الأمر ذريعة لادعاء أن الكتب السماوية السابقة كتب سليمة من التحريف والنسخ، وأن ذلك يستتبع وجوب العمل بهذه الكتب كالقرآن على السواء، وقد وضعوا في هذا المعنى بعض الكتب والرسائل كرسالة "أبحاث المجتهدين في الخلاف بين النصارى والمسلمين"، و"رسالة بولس الراهب أسقف صيدا"[2].

من هنا كان لزاماً علينا، ونحن ندرس منهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى أن نبين **المعنى الصحيح للتصديق القرآني وهيمنته على الكتب السماوية السابقة** للرد على افتراءات هؤلاء، ونظهر أنهم حمّلوا الآيات القرآنية ما لا تحتمل، وأرادوا بذلك تحريف كلام الله عن مواضعه، كما فعلوا في كتبهم.

تصديق القرآن للكتب السماوية السابقة:

وردت في القرآن آيات كثيرة تفيد تصديق كتاب الله لما سبق من الكتب المنزلة من قبل، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾[3].

1- يمكن الاستفادة في هذا الموضوع من المواقع التالية:

http://www.iu.edu.sa/Magazine/46/8.htm
http://realislam0.tripod.com/mosh_zekr.htm

2- "أبحاث المجتهدين في الخلاف بين النصارى والمسلمين"، نيقولا يعقوب غبريل، مصر، 1901م، التي رد عليها عبد الرحمن بن سليم البغدادي الشهير بباجه جي زاده، في كتابه "الفارق بين المخلوق والخالق"، ضبط أصوله وعلق عليه أحمد حجازي السقا، مصر، الطبعة الثانية، 1407هـ-1987م.

Paul KHOURY, Paul d'Antioche ; eveque melkite de sidon (XIIe s.), Beyroute imprimerie catholique, Librairie orientale 1964, recherche tome XXIV

التي رد عليها ابن تيمية في كتابه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، القاهرة، مطبعة المدني، 1379هـ-1959م.

3- سورة آل عمران، الآيات 1- 4.

وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (1).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2).

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي وُصف فيها القرآن بأنه مصدق لما بين يديه من كتب الله.

والتصديق المراد في هذه الآيات لا يعني بتاتاً أن الكتب السماوية في صيغتها الحالية كتب صادقة صحيحة، وإنما المراد من ذلك:

أن الوحي المنزل على محمد ﷺ صحيح وممكن، مثل موسى وعيسى عليهما السلام، يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (3)، ويشهد على ذلك أيضاً قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (4)، فالتصديق تصديق بأصل الوحي وبالرسالات السابقة على الصورة الصحيحة التي نزلت بها، والتي جاء ذكر الرسول ﷺ ومدحه فيها، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ

1- سورة الأنعام، الآية 92.

2- سورة يونس، الآية 37.

3- سورة الأنعام، الآيتان 91-92.

4- سورة الأحقاف، الآية 9.

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1].

• التصديق في هذه الآيات يعني موافقة القرآن لهذه الكتب في مقاصد الدين الإلهي وأصوله التي لا تختلف باختلاف الشرائع والرسالات، وذلك بموافقتها في الدعوة إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، وفي أصول الشريعة من صلاة وصيام وزكاة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [2]، قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [3]، **فأصول العقيدة والشريعة واحدة في جميع الكتب السماوية**، لا يختلف فيها كتاب لاحق عن كتاب سابق، ويبقى الاختلافاً في تفاصيلها العملية اختلافا يتلاءم مع زمن كل منها ومكانه، مصداقاً لقول الله ﷻ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [4].

• يتمثل تصديق القرآن لما سبق من الكتب في موافقته لها في الدعوة إلى الفضائل والترغيب فيها والترهيب من الرذائل والتنفير منها، فكل كتب الله المنزلة على الرسل أمرت بالعدل، والإحسان، وبر الوالدين، والصدق، والصبر، والوفاء، والأمانة، والرحمة، ومكارم الأخلاق، ونهت عن الظلم، والخيانة، والكذب والغدر، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وكل الرذائل التي تتأفف منها الأنفس الطيبة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [5].

• من أنواع التصديق أيضاً **كون القرآن جاء جامعاً لما تفرق في الكتب السابقة من فضائل**، وصاغها في قالب جديد، أنقذ به أصول الدين التي تبدلت بسبب التحريف والتغيير الذي أصابها على يد الأحبار والرهبان وغيرهم من المتلاعبين بالكتب.

1- سورة الأعراف، الآية 157.

2- سورة البقرة، الآية 83.

3- سورة البقرة، الآية 183.

4- سورة المائدة، الآية 48.

5- سورة الأنبياء، الآية 73.

والقرآن بعدّه خاتم الكتب جاء مجدداً لدعوة كل هذه الكتب، مؤكداً وحدتها في جوهر الدعوة إلى عبادة الله، فكان خلاصة كاملة للرسالات الأولى، وللنصائح التي بذلت للإنسانية منذ فجر وجودها، إذ تراكمت فيه المعارف والحكم البالغة، وهو بهذه المبادئ مجمع الحقائق الثابتة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [1]، وقد تحدى القرآن على لسان النبي ﷺ أهل الكتاب لما قال لهم: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [2]، فالتوراة والإنجيل لا يمكن أن يخالفا القرآن، لأن أصل الكتب السماوية واحد، والنبي ﷺ الخاتم مجدد لهذا الدين الواحد ومقيم لما هدم منه، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [3].

مما سبق يتبين لنا معنى تصديق القرآن لما تقدمه من الكتب السماوية، ومن هنا نرى أن هذا التصديق لا يفيد من قريب أو من بعيد أعداء الإسلام وخصومه فيما زعموه من بقاء كتبهم سليمة من التحريف والنسخ، وبطلان ما رتبوه على ذلك من وجوب عمل المسلمين بهذه الكتب كعملهم بالقرآن على السواء، لأن غاية ما يفيده هذا التصديق أن القرآن قرر إمكان الوحي ووقوعه، وجاء بحسب وصفه الذي في تلك الكتب، ووافقها في مقاصد الدين وكلياته، وليس في ذلك ما يدل على عدم تحريفها، أو عدم نسخها، ولا سيما أن القرآن نفسه اشتمل على ما يفيد هذا التحريف وذلك النسخ.

يقول صاحب "الفارق بين المخلوق والخالق" في الرد على صاحب رسالة "أبحاث المجتهدين" الذي حاول أن يستدل بالآيات القرآنية التي تصفه بأنه مصدق لما بين يديه على سلامة هذه الكتب من التحريف والنسخ، يقول: "ثم إني لا أتردد في أن هذا المصنف إما أن يكون جاهلاً وإما متجاهلاً، إذ لا يلزم من تصديق القرآن للكتب المنزلة قبله براءة هذه التوراة والأناجيل الأربعة والرسائل التي بأيديهم الآن من التحريف والتبديل والنسخ، ولا يلزم أيضاً وجوب اتباعها، فقوله هذا مغالطة على ضعفة العقول، وهو خلاف

1- سورة الأعلى، الآية 19.

2- سورة آل عمران، الآية 93.

3- سورة آل عمران، الآية 81.

الظاهر، والحق أن المفهوم من سياق هذه الآيات أن التصديق كان لثبوت صحة نزولها من الله فقط، لا لبراءة هذه الكتب، ولو لزم من التصديق وجود مصدق به للزم من تصديق الرسل وجودهم حين التصديق، وهذا فاسد"[1].

هيمنة القرآن على الكتب السماوية:

وكما جاء كتاب الله مصدقاً للكتب السماوية جاء أيضاً مهيمناً عليها، والهيمنة تعني الأمانة والشهادة والرقابة على الكتب السابقة، فما وافق منها القرآن فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل، يقول رشيد رضا في تفسيره المنار: " وأما قوله: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ فمعناه أنه رقيب عليها، وشهيد بما بينه من حقيقة حالها في أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها، لأنه جاء بعدها"[2]، أما ابن كثير فيقول: " فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فالقرآن أمين وحاكم وشاهد على كل كتاب قبله، وجعل الله هذا الكتاب العظيم آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات كمالاً ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها وتكفل بحفظه بنفسه"[3].

ويتميز معنى الهيمنة من معنى التصديق بكون الهيمنة لا تقتصر على مجرد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزال أصولها، وتقرير أصول شرائعها، بل تتعدى ذلك، فتبين ما اعتراها من نسخ أو تحريف، وما عرض لها من زيف وفساد، وبهذا تنفرد الهيمنة عن التصديق، فمعناها إذاً أتم وأشمل من معنى التصديق.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز بعد أن فسر الهيمنة بالحراسة الأمينة: " ومن قضية الحراسة الأمينة على تلك الكتب أن لا يكتفي الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها، وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعي وجودها في تلك الكتب"[4].

1- "الفارق بين الخالق والمخلوق" مرجع سابق، ص 42.

2- "تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار"، محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية، الجزء السادس، ص410 - 411.

3- "مختصر تفسير ابن كثير"، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة، 1402هـ - 1981م. الجزء الأول، ص 524.

4- "الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان"، محمد عبد الله دراز، دار السعادة مصر، 1389هـ، ص 189.

وتتجلى مظاهر هيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب السماوية في كونه أخبر بتحريف هذه الكتب وبتبديلها، وأنها لم تبق على ما كان مفروضاً فيها من الثقة بها وأحقية كل ما فيها، بل تناولتها أيدي أهل الكتاب الآثمة بالتحريف والتبديل، وتناولوا ما بقي منها بالتأويل الفاسد، طبقاً للأهواء والشهوات، أو متابعة لذوي السلطان، أو محاولة لكسب الجدل على أعدائهم وخصومهم، بل أخبر القرآن كذلك بأنهم كتبوا الكتب بأيديهم ونسبوها إلى الله زوراً وبهتاناً.

ومع التحريف والتبديل هناك وسائل أخرى ذكرها القرآن، لا تقل خطورة في تأثيرها عن التحريف والتبديل، وإن كانت لا ترتفع إلى درجة التحريف والتبديل فيما يتعلق بما تحدثه في النص من تغيير، فأصحاب هذه الوسائل آثروا عدم التلاعب بالنص، أو الاقتراب منه بالتغيير فيه، ولكنهم اكتشفوا وسائل أخرى، تحقق الغرض المنشود من دون إلحاق أي تغيير في النص الأصلي، ومن هذه الوسائل يذكر القرآن ما يلي:

الإخفاء: كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [1]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2].

الكتمان: كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [3]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ

1- سورة الأنعام، الآيتان91-92.

2- سورة المائدة، الآيتان 15- 16.

3- سورة البقرة، الآية 146.

ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾[1].

إلباس الحق بالباطل: كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[2]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[3].

الكذب والتكذيب: كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٩٣) فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[4].

لي الألسنة بالكتاب: كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ ﴾[5].

التعطيل: ومعنى ذلك تعطيل أحكام التوراة والإنجيل وعدم إقامتها كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴾[6]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾[7].

الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض: كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[8].

1- سورة آل عمران، الآية 187.

2- سورة آل عمران، الآية 71.

3- سورة البقرة، الآية 42.

4- سورة آل عمران، الآيتان 93 – 94.

5- سورة النساء، الآية 46.

6- سورة المائدة، الآية 66.

7- سورة المائدة، الآية 68.

8- سورة البقرة، الآية 85.

الإهمال: كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (2).

النسيان: ويتضح من قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (3).

وتوضح هذه الوسائل مجتمعة الطرق التي تحولت بها نصوص التوراة والإنجيل من نص إلهي إلى نص إنساني، خطّه رجال الدين من الأحبار والرهبان بأيديهم.

وتتجلى هيمنة القرآن أيضاً في بيانه للمسائل الكبرى التي خالفت فيها الكتب السماوية الحق، منها اشتمال التوراة على صور التجسيم والتشبيه كوصفها الله ﷻ بالفقر، وأن يده مغلولة، وأن اليهود أبناء الله وأحباؤه، وكادعاءات النصارى صلب المسيح وألوهيته وبنوته عليه السلام لله ﷻ، فأبطل القرآن سائر هذه الافتراءات، وأكد أن التوراة والإنجيل الحقيقيين ذكرا مجيء النبي ﷺ وصفاته والأمارات الدالة عليه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (4)، وقال ﷻ أيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (5)، فيكون محمد ﷺ خاتم النبيئين والرسل، والقرآن خاتم الرسالات

1- سورة البقرة، الآية 101.
2- سورة آل عمران، الآية 187.
3- سورة المائدة، الآية 13.
4- سورة الأعراف، الآية 157.
5- سورة الصف، الآية 6.

الذي أنهى العمل بما سبقه من الكتب، والذي تميز بالوسطية والاعتدال عن اليهودية المغالية والنصرانية المقصرة، فالدعوة الإسلامية جاءت "تحمل في طياتها من القيمة الذاتية ما يفرضها، ويكتب لها الانتشار على السيادة، إنها تمتاز من النصرانية المنتشرة إذ ذاك بنظام اقتصادي، خلت منه الأنانية، وبمنطق عقلي لم يكن فيما كان مأثوراً حينئذ من كلام السيد المسيح عليه السلام، ثم هي تصحيح للمسيحية نفسها التي كانت إذ ذاك محرفة.

وهي تمتاز مما كان إذ ذاك من اليهودية بما فيها من بساطة ونضرة وتنزيه لله ورسله وأنبيائه، ليس هناك ما يماثله في العهد القديم، ثم هي رجوع باليهودية إلى الحق قبل أن يحرفها ذووها"[1].

وهذه الحقائق التي سجلها القرآن لم يجد المنصفون من أهل الكتاب بدّاً من الاعتراف والإقرار بها على أنفسهم، يقول البروفسور جفري باريندر في كتابه: "عيسى في القرآن" ما يلي: "إن المعاني العميقة والهامة التي يتضمنها القرآن غير معروفة لدى عامة المسيحية، كما كانت شهادة القرآن بالتوحيد وشهادته بكون عيسى ومريم مجرد بشر لا غير، تصحيحاً مهماً أشد ما كانت الكنيسة في حاجة إليه، غير أنها تجاهلته، وعلى المسيحية أن تعيد صياغة مصطلحاتها مثل: ابن الله، والثالوث، والخلاص، والنظر إليها من منظار جديد، كما يجب إعادة البحث في معاني النبوة والوحي على ضوء التنزيل الإلهي، كما نزل على محمد في القرآن الذي لا ريب فيه، لأن المثل الذي أعطاه الإسلام لأهل الكتاب يفرض علينا الخجل من أنفسنا"[2].

1- "التفكير الفلسفي في الإسلام" عبد الحليم محمود، دار النصر- القاهرة، الطبعة الثالثة 1387هـ-1968، الجزء الأول، ص51.

2- نقلاً عن كتاب "المسيحية والإسلام والاستشراق" مرجع سابق، ص 71- 72.

المبحث الثالث

مناقشة القرآن للعقائد المخالفة

قدّم القرآن الأديان جملة واحدة من دون أن يفصل بينها في ثلاثة مواضع:

1. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [1].

2. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2].

3. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [3].

وإن كان الحظ الأوفر للأديان بالنظر والاستقراء في القرآن من نصيب أهل الكتاب[4]، فهذا لم يمنع وجود آيات كثيرة، تخاطب أصنافاً مختلفة ممن جاء ذكرهم في هذه الآيات الثلاث كالمشركين والمجوس والصابئة، وممن لم يأت ذكرهم فيها كمنكري النبوة ومنكري البعث والنشور.

المُشْـرِكُـونَ

نظراً إلى خطورة الشرك كان القرآن شديد الوضوح في مناظرته للمشركين، فلم يترك جانباً من الجوانب التي تخصهم إلا وناقشها معهم، محتكماً إلى العقل والمنطق السليم، محدداً ألوان الشرك ومظاهره، ثم الآثار والمفاسد المترتبة عليه من دون أن يغفل الهدف الرئيس من مناظرتهم، وهو دعوتهم بين الحين والآخر إلى توحيد الله، ونبذ عبادة الأوثان والأصنام، وبيّن أن ظاهرة الشرك لها جذور قديمة قدم الإنسان، قال تعالى:

1- سورة البقرة، الآية 62.

2- سورة المائدة، الآية69.

3- سورة الحج، الآية 17.

4- جاءت سور كثيرة أكثرها من السور الطوال في شأن أهل الكتاب، نذكر منها مثالاً لا حصراً سورة البقرة، وآل عمران، والمائدة، والأعراف، ويوسف، ومريم، وطه، والقصص.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (1).

كما كانت دعوة الأنبياء والرسل منذ البداية متجهة إلى تصويب منحى العقيدة نحو الجهة الصحيحة، وتوحيد الله واجتناب الطاغوت، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (3).

ومن مظاهر الشرك التي بينها القرآن توجيه العبادة لغير الله، وتحريم ما أحل الله، وقتل الأولاد، والذبح لغير الله، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (4).

1- سورة الأعراف، الآيتان 172- 173.

2- سورة النحل، الآية 36.

3- سورة الأنبياء، الآية 25.

4- سورة الأنعام، الآيات 136- 140.

وقد نهج القرآن مع المشركين منهج التشكيك في تلك العقائد التي يتشبثون بها من دون دليل أو برهان عليها، قال سبحانه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [1]، ومراراً وتكراراً حضهم على تحرير الفكر والعقل وبذل الجهد الفكري الذي يمكّن من نبذ التقليد والتخلي عن الفكر المتشنج، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [2]، كما دعاهم للوقوف بغية النظر والتأمل في الكون للوصول إلى القرار الصحيح والاختيار الأصلح باستعمال منهج المقارنة، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [3].

وقدم بذلك النموذج الحي والقدوة الحسنة في استعمال العقل للوصول إلى الحقيقة عند عرضه لقصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ

1- سورة الأنبياء، الآية 24.

2- سورة البقرة، الآية 170.

3- سورة النمل، الآيات 59- 64.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [1].

فاعتماد العقل السليم المتيقظ والمتحرر من أغلال الجمود والتقليد البليد لما عليه الآباء والأسلاف من ضلالات لا بد أن يصل إلى الحقيقة، ولابد من أن يتوصل إلى استحالة الشرك وتعدد الآلهة، وهذا ما ركز القرآن على توضيحه في آيات متعددة، قال تعالى:

- ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [2].

- وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [3].

- وقال أيضاً: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [4].

ثم حكم القرآن بأن الله تعالى لا يقبل الشرك ولا يغفره، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [5]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [6]، وأن الشرك محبط للعمل ومفض إلى الخسران، لا فرق فيه

1- سورة الأنعام، الآيات 74- 79.

2- سورة الإسراء، الآيتان 42-43.

3- سورة الأنبياء، الآيتان 21- 22.

4- سورة المؤمنون، الآية 91.

5- سورة النساء، الآية 48.

6- سورة النساء، الآية 116.

بين الأنبياء وسائر البشر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [1].

وفي آيات كثيرة عرض حجج المشركين، وناقشها مناقشة مستفيضة، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [2]، فإذا كان تسويغ المشركين لشركهم أنهم مجبرون لا مخيرون في اعتقادهم، فيلوذون بدعوى الجبرية، أي إنهم مسيرون وفق المشيئة الإلهية، وإنه تعالى لو لم يكن راضياً بما هم عليه من العقيدة لما تركهم على ما هم عليه، ولأجبرهم على التوحيد، لكن تبليغ الرسل ودعواتهم إلى توحيد الله واجتناب الطاغوت تجعل تسويغهم هذا كاذباً وحجتهم واهية وادعاءهم لرضى الله على ما هم عليه افتراء، يقول تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [3].

وتختلف طريقة القرآن بين الفينة والأخرى في دعوة المشركين إلى استعمال العقل، فتارة يضرب لهم الأمثلة ساخراً من عقولهم القاصرة، يقول تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا

1- سورة الزمر، الآيتان 65- 66.

2- سورة النحل، الآيتان 35- 36.

3- سورة الزمر، الآية 7.

﴿ يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [1]، وتارة يظهر غنى الله ﷻ عن اتخاذ الصاحبة والولد، فيرد زعمهم ويبطل افتراءهم، يقول تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2]، ثم يقرر أن هؤلاء الذين ادعوا لهم البنوة لله ليسوا سوى عباد لله، يقرون بألوهيته تعالى وبعبوديتهم له، معترفين بوحدانيته، فكان اعترافهم من أقوى الأدلة وسيدها على هدم هذه الدعوى، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3]، ثم يشتد الخطاب في آية أخرى لشناعة الادعاء وخطورة الافتراء، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [4].

ويأمر الله ﷻ رسوله بإظهار موقفه للمشركين، ولكل من سولت له نفسه أن يصف الله ﷻ بما لا يليق بجلاله وعظمته:

- قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [5].

1- سورة النحل، الآيات 73- 76.

2- سورة يونس، الآية 68.

3- سورة الأنبياء، الآيات 26- 29.

4- سورة مريم، الآيات 88- 95.

5- سورة يونس، الآيات 104- 106.

- وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [1].

ليختم مناظرته مع المشركين بإثبات الوحدانية لله تعالى وإخلاص العبودية له وحده ﷺ في سورة الإخلاص، يقول تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [2].

الصَّابِئَةُ

ذكرت الصابئة في القرآن في ثلاثة مواضع:

1- سورة البقرة، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [3].

2- سورة المائدة، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [4].

3- سورة الحج، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [5].

وقد اقترن ذكرهم في هذه الآيات الثلاث بأهل الأديان الكتابية، الإسلام، والمسيحية واليهودية، ما يوحي إلينا أن دين الصابئة في الأصل دين التوحيد، كما هو الشأن لدى هذه

1- سورة الكافرون.

2- سورة الإخلاص.

3- سورة البقرة، الآية 62.

4- سورة المائدة، الآية 69.

5- سورة الحج، الآية 17.

الأديان الثلاثة، إلا أنهم انحرفوا عن الطريق الصحيح، والله سيتولى حسابهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [1]، ولا يقدم القرآن أي تفاصيل أخرى عنهم كغيرهم من اليهود والنصارى، ما يجعل تحديد من هم صعباً؟، وما اعتقادهم؟، وهل لهم كتاب؟، ومن النبي الذي بعث فيهم؟، وأسئلة أخرى تبقى مطروحة تبحث عن كنه هذه الفئة.

وإذا ذهبنا إلى تفسير الصابئة بـ"عبدة الكواكب" - كما يرجح الكثير من الباحثين- فإن القرآن قدَّم لنا نموذجين متباعدين في الزمن، نموذج قوم إبراهيم عليه السلام[2] ونموذج بلقيس وقومها الذين كانوا زمن سليمان عليه السلام، يقول تعالى:

- ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [3].

- ويقـــول أيـــضاً: ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [4].

1- سورة الحج: الآية 17

2- قال شيخ الإسلام ابن تيمية واصفاً قوم إبراهيم عليه السلام في معرض كلامه عن ماهية التنجيم وأصنافه:"واعلم أن التنجيم على ثلاثة أقسام، أحدها ما هو كفر بإجماع المسلمين، وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة، وهذا كفر بإجماع المسلمين، وهذا قول الصابئة المنجمين الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا كانوا يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيماً، يسجدون لها، ويتذللون لها، ويسبحونها تسابيح معروفة في كتبهم، ويدعونها دعوات لا تنبغي إلا لخالقها وفاطرها وحده لا شريك له، ويبنون لكل كوكب هيكلاً أي موضعاً لعبادته، ويصورون فيه ذلك الكوكب، ويتخذونه لعبادته وتعظيمه، ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم وتخاطبهم وتقضي حوائجهم، وتلك الروحانيات هي الشياطين، تنزلت عليهم وخاطبتهم وقضت حوائجهم ..." تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد"، سلمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ص387.

3- سورة الأنعام، الآيات 74- 78.

4- سورة النمل، الآيتان 23- 24.

كما نهى القرآن مرات كثيرة عن تقديس النجوم والكواكب، ودعا إلى عبادة الله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [1].

وأقسم الله ﷻ بهذه الكواكب ليبين أنها مخلوقات خاضعة له سبحانه وتعالى:

- ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [2].
- و ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ [3].
- و﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [4].

وإذا رجعنا إلى كتب الملل والنحل نجد الإمام ابن حزم يصنفهم ضمن من ينكرون بعض النبوات ويؤمنون ببعضها، يقول في كتابه"الفصل في الملل والأهواء والنحل":"وكذلك وافقتنا الصابئة والمجوس على الإقرار ببعض الأنبياء، دون بعض"[5]، وذكر من ضمن الأنبياء الذين يقرون بنبوتهم: "...وهكذا يقال لمن أقر بنبوة بعض الأنبياء عليهم السلام من فرق الصابئين كـ"إدريس" وغيره ممن لا يوقن بصحة قولهم فيه"[6]، ويشير ابن حزم إشارة مهمة خلال رده على الصابئة في ادعائهم النبوة لبعض الأسماء كـ"عادمون" و"أسقلابيوس" و"أليون" إلى أن الصابئة فئة قليلة تكاد تندثر:"... ومبدأ هذا مع ذهاب الصابئين وانقطاعهم، ورجوع نقلهم إلى من لا يقوم بهم حجة لقلتهم، ولعلهم اليوم في جميع الأرض يبلغون أربعين"[7]، أما الشهرستاني فقد وصفهم بعبدة الكواكب، وخصص لهم في كتابه "الملل والنحل" فصلاً واسعاً، حيث يعرض فيه لمذهبهم على نمط مجادلة بين الصابئة والحنفاء، فخرج من هذا الجدال بنتيجة أن الصابئة يؤسسون ديانتهم على فكرة الروحانيات التي تؤدي دور الوسيط بين الله الخالق الحكيم والناس.[8]

1- سورة فصلت، الآية 37.

2- سورة النجم، الآية 1.

3- سورة الانشقاق، الآيات 16- 18.

4- سورة الشمس، الآيات 1- 2.

5- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"مرجع سابق، الجزء الأول، ص 177.

6- المرجع نفسه، الجزء الأول، ص 199.

7- المرجع نفسه، الجزء الأول، ص 199.

8- "الملل والنحل" الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة- بيروت، الجزء الثاني، الفصل الثاني: مذهب أصحاب الروحانيات، مناظرات بين الصابئة والحنفاء، ص45- 46.

أما إذا بحثنا عن معنى كلمة "صابئة" في كتب التفسير[1] لم نجد تحديداً دقيقاً لهذه الكلمة بقدر ما نجد اجتهادات خاصة، تختلف بحسب منظور كل مفسر، ففي تعريف الزمخشري هم:"قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية، وعبدوا الملائكة، وصبأ إذا خرج من الدين"[2].

أما في تعريف ابن عطية " فالصابئ هو التارك لدينه الذي شرع له إلى دين غيره" ويسوق ابن عطية أقوالاً مختلفة، منها قول الحسن بن أبي الحسن وقتادة:"هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى القبلة ويصلون الخمس ويقرؤون الزبور، رآهم زياد بن أبي سفيان فأراد أن يضع الجزية عنهم، حتى عرف أنهم يعبدون الملائكة"[3]، وجاء في تفسير الآلوسي:" إنهم فرق، فرقة تعبد الكواكب وفرقة تعبد الأصنام، وكل من هاتين الفرقتين أصناف شتى مختلفون في الاعتقادات والتعبدات، والإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يقول: إنهم ليسوا بعبدة أوثان، وإنما يعظمون النجوم، كما تعظم الكعبة، وقيل: إنهم هم قوم موحدون، يعتقدون تأثير النجوم، ويقرون ببعض الأنبياء كيحيى عليه السلام ..."[4]

والحقيقة أن أقوال كتب التفسير كثيرة ومتضاربة، "ومما يزيد الأمر إشكالاً والبحث تعقيداً أن الصابئين منزوون عن غيرهم من الطوائف كل الانزواء، سواء أكان ذلك من ناحية شعائرهم الدينية التي يقيمونها أم من ناحية اللغة التي يتخاطبون بها، وهم إلى ذلك لا يرون دخول أحد من غير نحلتهم ولا يؤاكلونه مطلقاً"[5].

المَجُوسُ

ذكر المجوس مرة واحدة في القرآن فقط، حيث اقترن ذكرهم بأهل الأديان الكتابية، الإسلام والمسيحية واليهودية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[6].

1- يمكن الرجوع إلى كتاب "موجز الأديان في القرآن" للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1419هـ-1998م، الفصل الخامس، المبحث الأول، "الصابئون".

2- "الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، الإمام أبو القاسم جار الله الزمخشري، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1415 هـ - 1995م، الجزء الأول، ص 149.

3- "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، 1413هـ- 1993م، الجزء الأول، ص 157.

4- "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1405هـ- 1985م، الجزء الأول، ص 279.

5- "الصابئة في ماضيهم وحاضرهم"، السيد عبد الرزاق الحسني، مطبعة العرفان، صيدا، لبنان، الطبعة الرابعة، 1390هـ-1970م، ص7.

6- سورة الحج، الآية 17.

وقد يوحي هذا إلى أنهم كذلك من أهل الكتاب، وإن لم يشر القرآن إلى ذلك، فإن السنّة النبوية تصنفهم مع أهل الكتاب، لهم ما لأهل الكتاب من حقوق، وعليهم ما على أهل الكتاب من واجبات، فهم كذلك من "أهل الذمة"، يؤدون الجزية في حالة رفضهم لاعتناق الإسلام، كما يؤكد ذلك كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى[1] ملك البحرين الذي جاء فيه:" من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلْمٌ أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ذمة الله وذمة رسوله، فمن أحب ذلك من المجوس، فإنه آمن، ومن أبى فعليه الجزية"[2]. "وعن جعفر بن محمد عن أبيه أنه ذُكر لعمر بن الخطاب قوم يعبدون النار، ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب، فقال عمر: ما أدري ما أصنع بهؤلاء؟، فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد أن رسول الله ﷺ أنه قال:"سُنّوا بهم سنّة أهل الكتاب"، ويصف النبي ﷺ المجوس في رسالته التي بعث بها إلى المنذر بن ساوى، قال له:"يا منذر، إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغرن عن الآخرة، إن هذه المجوسية شر دين، ليس فيها تكرم العرب، ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتنزه عن أكله، ويعبدون في الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه؟، ولمن لا يخون ألا تأمنه؟، ولمن لا يخلف ألا تثق به؟، هذا هو النبي الأمي الذي لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه، إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر"[3]، ومن هذه الرسالة نجد النبي ﷺ يبين أن المجوس قوم يعبدون النار، وينكحون ويأكلون ما حرم الله تعالى، ويصف الديانة المجوسية بشر دين، ولعل وصفه هذا إشارة بليغة إلى ما ناقشه القرآن معهم من أقوال بعيدة عن العقل، لا تقوم على الفهم القويم ولا النظر السديد، فالقرآن يردُ قولهم بالثنوية، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ

1- "هو المنذر بن ساوى بن الأخنس، (..- 11هـ- ..633م)، أمير في الجاهلية والإسلام، كان صاحب البحرين، كتب إليه النبي ﷺ رسالته قبل فتح مكة مع العلاء بن الحضرمي، يدعوه إلى الإسلام فأسلم، واستمر في عمله، ولم يصح خبر وفوده على النبي ﷺ، ومات قبل ردة أهل البحرين"، "الأعلام"، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، الجزء السابع، ص293- 294.

2- "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، أبو العباس أحمد القلقشندي الشافعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء السادس، ص 376.

3- "العقيدة الإسلامية وأسسها"، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم- دمشق، سلسلة طريق الإسلام، الطبعة الخامسة، 1408هـ-1988م، ص323.

وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (1)، وخلال رده ناقش معهم وهمهم الذي يترتب عليه قولهم بوجود إلهين اثنين، إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة، فاعتقادهم هذا يجعلهم يؤمنون بأن إله الخير يتحكم في النعمة، وإله الشر يتحكم في الضر، وبيّن سبحانه وتعالى أن النور والظلمات آية من آيات الله تعالى، يقول تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (2).

مُنْكِرُو البَعْث

ناظر القرآن منكري البعث في مواضع كثيرة بمنهج دقيق، يجمع بين مخاطبة العقل والحس، هدفه كشف مصادر أوهامهم وإظهار فساد تفكيرهم، وردهم بالحجة الدامغة إلى منهج التفكير القويم والنظر السديد، مبيناً أن جميع الاتجاهات الفكرية لدى الذين أنكروا البعث اتجاهات تافهة، لا تقوم على أساس.

ومن السور الأولى التي انصب اهتمامها بالدرجة الأولى على توكيد البعث، سورة المرسلات والقيامة والقارعة و ق، ولعل أول إشارة خاطفة إلى الحياة الأخروية التي يرجع الناس فيها إلى ربهم قوله تعالى في أول سورة نزلت من القرآن: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ (3)، ثم توالت الآيات بشأن هذه الحياة ووصفها مؤكدة أنها ركن من أركان الإسلام، كقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (4)، وتوعد الله الكافر بها وعيداً شديداً، يقول عز من قائل: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (5).

1- سورة النحل، الآيات 51- 54.

2- سورة الأنعام، الآية 1.

3- سورة العلق، الآية 8.

4- سورة البقرة، الآيات 1- 5.

5- سورة النساء، الآية 136.

ومع أن الإيمان بالبعث والحياة الأخرى يبقى من الأمور الغيبية التي لا سبيل للعقل إلى إدراكها، فقد يسر الله تعالى للإيمان به مسالك عقلية، هي غاية في الوضوح والسهولة، وساق لنا الأدلة على وجوده خلال الآيات الكونية والأنفس، منها :

- أن الشيء إذا لم يكن، ثم كان، ثم أعدم، كانت إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة، ثم أعدمه وأفناه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (2).

- الاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما، فالنوم يعد موتاً مصغراً، والاستيقاظ يعد حياة مصغرة أيضاً، فكما تجري عملية النوم لدى الإنسان والحيوان تجري عملية الموت والحياة الكاملة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (4).

- الاستدلال بالأرض الميتة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (5).

ومن الآيات القرآنية التي ناظرت منكري البعث يتضح بجلاء أن إنكارهم يرجع إلى عدم ثقتهم في قدرة الله تعالى على إعادة الخلق واستبعادهم وجود من يستطيع إعادة إحياء الموتى، يقول الله عز وجل على لسانهم:

1- سورة الروم، الآية 27.
2- سورة يس، الآيتان 78- 79
3- سورة الأنعام، الآية 60.
4- سورة الزمر، الآية 42.
5- سورة فصلت، الآية 39.

- ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴾ [1].

- ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴾ [2].

- ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾ [3].

- ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ [4].

ففي كل هذه الآيات استبعاد لحدوث البعث بدعوى أن ليس هناك من يمكنه القيام به واستحالة ذلك عقلاً، ولذلك جاء الرد القرآني مبطلاً ادعاءهم، ومبيناً أن السؤال الواجب طرحه والذي يتلاءم مع العقل هو التساؤل عن الخالق الذي أخرج الشيء من عدم، يقول عز وجل رداً على أوهامهم ﴿ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴾ [5]، فبينت الآية أنه حتى لو كانوا خلقاً من المخلوقات التي يتصورون أنها عظيمة فالذي فطرها أول مرة قادر على إعادة العملية نفسها أكثر من مرة، ورداً على الذي استبعد خروجه حياً مرة أخرى قال تعالى:﴿ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ [6]، أما الاستغراب المثار في سورة يس فلم يكتف القرآن بإرجاع السؤال عن الخالق الأول، بل بين أن قدرة الله المطلقة تخلق من الشجر الأخضر ناراً، مع أن العادة اقتضت استعمال الشجر اليابس لإشعال النار، لكن الزيت الذي خلقه الله في هذا الشجر الأخضر غيّر العادة، ولتأكيد البعث أيضاً وإثباته ضرب الله لمنكريه الكثير من الأمثال المتعلقة بخلق السماوات والأرض،

1- سورة الإسراء، الآية 49.

2- سورة مريم، الآية 66.

3- سورة يس، الآية 78.

4- سورة الواقعة، الآيتان 47- 48.

5- سورة الإسراء، الآيتان 50- 51.

6- سورة مريم، الآية 67.

قال تعالى: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [1].

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2].

ونبه الله تعالى كل غافل على عملية الإحياء التي تحدث كل يوم أمام عينه، يقول عز من قائل: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿48﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿49﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3]، ودعا صراحة كل شاكّ في هذه العقيدة إلى التدبر في عملية الخلق، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿5﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [4].

ومع دعوة القرآن إلى استعمال العقل والنظر باعتماد المنهج العقلي في الرد على منكري البعث، نهج القرآن المنهج الإخباري في إثبات هذه العقيدة، وذلك بتذكيره بقصص الموتى الذين أحياهم الله تعالى، والذين جاء ذكرهم في أخبار الأمم السالفة وكتبها، كقصة الرجل الذي مرَّ على قرية، وهي خاوية على عروشها، وقصة إحياء بني إسرائيل،

1- سورة الإسراء، الآية 99.

2- سورة الأحقاف، الآيتان 33.

3- سورة الروم، الآيات 48 - 50.

4- سورة الحج، الآيتان 5- 6.

وقصة إبراهيم عليه السلام مع الله عز وجل بشأن إحياء الموتى، وهذه القصص كلها وردت في أطول سورة في القرآن، وهي سورة البقرة، وقصة البقرة الواردة في السورة نفسها، وكيف أحيا الله تعالى الميت من أبعاض البقرة الميتة، فكان من عجيب قدرته تعالى إحياء ميت بميت، وقصة أهل الكهف أو الفتية النيام الواردة في سورة الكهف، ومعجزة المسيح عليه السلام في إحياء الموتى.

مُنْكِرُو النُّبُوَةِ

وقف القرآن مع منكري النبوة وقفات طويلة، مصوراً مواقفهم المختلفة من النبوة والأنبياء، حاكياً أقوالهم التي تمتلئ سخرية واستكباراً، قال تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴾ [1]، ووقف القرآن وقفة خاصة مع منكري نبوة محمد ﷺ، أبرز فيها ادعاءاتهم وأدلتهم المغالطة، وفندها كعادته بناء على منطق العقل السليم، هدفه تصحيح معنى النبوة كما هو شأن المصطلحات الأخرى كالألوهية، والوحي والبعث، فـ"النبوة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة لكل ما تقدمها من عقائد بني الإنسان في الإله"[2]، كما فرق بين منكري النبوة جملة ومن يقرون ببعض النبوات وينكرون بعضها.

والمتدبر للآيات القرآنية الواردة في شأن منكري النبوة يجدها تخاطب ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: ينكر النبوة مطلقاً، ويرى استحالتها في البشر.

الصنف الثاني: لا ينكر النبوة، وإنما التبس عليه معناها بمعانٍ أخرى كمعنى الغيب والكهانة والسحر والجنون، فأدى به هذا اللبس إلى عدم قبول النبوة وفق معنى القرآن.

الصنف الثالث: لم ينكر النبوة، وإنما أنكر نبوة محمد ﷺ، وأبرز هؤلاء المنكرين مشركو قريش وأهل الكتاب.

1- سورة الفرقان، الآية 41.

2- "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، عباس محمود العقاد، دار القلم- القاهرة، الطبعة الثانية، 1382هـ- 1962م، ص 61.

الصنف الأول:

عرض القرآن أقوال منكري النبوة جملة، فبين أن دوافعهم وراء هذه الأوهام المزعومة والأفكار القاصرة هي اعتقادهم استحالة وجود النبوة في البشر بأي نوع من أنواع الاتصال، ورأوا أن الرسل لا يمكن أن يرسلوا إلا من جنس آخر غير الجنس البشري كالملائكة أو غيرهم، وفي أقصى الحالات لا بد من أن يتصف هذا البشر بصفات الملائكة، يقول تعالى مبيناً هذا الاعتقاد الخاطئ: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [1]، فلابد لمدعي النبوة في نظر هؤلاء، أن يرتفع عن صفة البشرية، فلا يأكل، ولا يشرب، ولا يمشي في الأسواق، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [2]، ولقد جمعت الآيات 90-95 من سورة الإسراء ما يطلبه هؤلاء المنكرون مما يستحيل تحقيقه من طرف رسول بشر، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [3].

1- سورة الأنعام، الآيتان 8 - 9.

2- سورة الفرقان، الآيتان 7 - 8.

3- سورة الإسراء، الآيات 90 - 95.

فإذا كان شرطهم للإيمان بالنبي يتوقف على ألا يكون الرسول بشراً، فهذا أمر ينافي العقل والمنطق، والمعقول أن الرسول يكون من جنس المرسل إليه، فلا يكون للبشر إلا الرسول البشر، ولا للملائكة إلا الملك، والمفروض أن يكون الرسول قدوة للذين بعث إليهم، حتى لا يتعذر عليهم الأخذ بتعاليمه، أو يكون ما يطلبه منهم فوق طاقتهم، ولذلك أكد القرآن مراراً بشرية النبي، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1]،

"وفي تخيُّر كلمة "مثلكم" معنى مقصود به التسوية المطلقة والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال"[2]، فمن مخاطر هذا الاعتقاد أنه يجعل من النبي كائناً علوياً، له صفات الألوهية، ولعل اعتقاد بعض الأمم بوجود أنصاف الآلهة أو الآلهة نتيجة لهذا المعتقد، ولقد كان النبي ﷺ واعيا بخطورة هذا التصور، ويخشى أن يُؤلَّه، كما أُله عيسى عليه السلام بسبب غلو قومه في حبهم له، فكان يقول ﷺ: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله"[3]، ويبين القرآن استحالة إيمان هؤلاء، حتى لو بعث الله ﷻ إليهم الملائكة أو صعدوا في السماء، ليقفوا على ما يطلبون، لأن رفضهم للنبوة ما هو إلا تعنت وجحود، قال تعالى:

- ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[4].

- وقال أيضاً:﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[5].

1- سورة الكهف، الآية 110.

2- "محمد الرسالة والرسول"، نظمي لوقا، الطبعة الأولى، 1959م، ص 55.

3- "مختصر صحيح البخاري" المسمى:"التجريد الصريح لأحكام الجامع الصحيح"، زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ-1994م، رقم الحديث 1439.

4- سورة الأنعام، الآية 111.

5- سورة الحجر، الآيات 11- 15.

الصنف الثاني:

أما الصنف الثاني من منكري النبوة فلا ينفي إمكان وقوعها، وإنما مزجوا بينها وبين معانٍ أخرى كالسحر والكهانة والجنون والتنجيم والشعر، يقول تعالى واصفا بعض أقوالهم: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (1)، لذلك ركز القرآن في مناظرتهم على نفي كل هذه الصفات التي يلصقونها بالنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2)، ولعل اعتقاد العرب هذا لم يكن نابعا من فراغ، بل هو مستمد من تصورات الأمم القديمة لمعنى النبوة، حيث ارتبطت النبوة بالسحر والكهانة، فكان الكاهن مثلاً يعرف بأنه نبي والساحر كذلك، وكتاب العهد القديم مليء بهذه المصطلحات الخاطئة، حتى إننا نجد لأنبياء بني إسرائيل فيه شعائر وعادات، لا تمت إلى النبوة الحقيقية بصلة، وإنما هي دخيلة عليها نتيجة تأثر كُتّاب العهد القديم بالأمم الوثنية التي كانوا يعيشون معها من بابليين وآشوريين، والقرآن كان واضحاً كل الوضوح في نفي أي صلة بين هذه الأوهام والشوائب ونبوة محمد ﷺ، قال تعالى:

- ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (3).

- وقال: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (4).

" فساحة النبوة بريئة منها، ويستحيل أن يكون النبي ساحراً أو كاهناً أو شاعراً أو منجماً، لأن هذه الصفات تضع النبي في خانة الكذبة والمفترين على الله عز وجل، ولم يكن النبي ﷺ ليستغلها، حتى يصدقه الناس، فعندما مات ابنه إبراهيم، وانكسفت الشمس ساعة دفنه، وتصايح المسلمون حول القبر: إنها لآية من آيات الله أن تنكسف

1- سورة الذاريات، الآية 52.

2- سورة الحاقة، الآيات 38 - 43.

3- سورة الأنعام، الآية 50.

4- سورة الأعراف، الآية 188.

الشمس لموت ابن محمد ﷺ، بادرهم عليه الصلاة والسلام ساعتها مذكراً إياهم بآيات الله:"إن الشمس والقمر آيتان له، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته"[1]، فالغيب من اختصاص الله تعالى وحده، ولا يمكن أحداً أن يطلع عليه إلا بإذنه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

الصنف الثالث:

كان القرآن صارماً جداً مع هذا الصنف، لأن دوافع رفضه لنبوة محمد ﷺ دوافع شخصية، ترجع إلى أسباب نفسية محضة كالتعنت والاستكبار والجحود، يقول تعالى واصفاً عنادهم الشديد: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾[3]، فعدم إيمان هذا الصنف بنبوة محمد ﷺ لم يكن ناتجاً من عدم إيمانهم بإمكان حصول النبوة أو من اختلاط معنى النبوة عندهم بمعانٍ أخرى، لأنهم يعلمون كل العلم أن النبيﷺ صادق، ويؤمنون بنبوته في قرارة أنفسهم، ولكن لأن إيمانهم بها يقتضي حتماً التسليم والامتثال لرسالة الإسلام والتخلي عن الامتيازات التي اعتادوها في ظل نظام الحكم الجاهلي، وفي هذا يناظرهم القرآن في خطاب شديد اللهجة، يتضمن الوعيد والتهديد، يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ

1- "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، مرجع سابق، ص 59.

2- سورة الأنعام، الآية 59.

3- سورة المدثر، الآيات 11- 26.

جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [1].

إن الإيمان بنبوة محمدﷺ وبرسالته يفرض عليهم الخضوع لأحكام هذه الرسالة الشاملة في كل ميادين الحياة، ومن ثم تخليهم عن أنظمتهم القديمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فالإصلاحات التي جاء بها الإسلام شملت كل هذه الميادين، فعلى المستوى الاجتماعي حرَّم نظام الرق وسوَّى بين البشر في الحقوق والواجبات، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأسود على أبيض، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى، وآخى بين كل المسلمين، وهو أمر لا تستسيغه هذه الفئة التي كانت تحظى بالسيادة والزعامة في المجتمع، أما على المستوى الاقتصادي فقد نظم البيوع، وحدد طرق اكتساب الأموال وطرق إنفاقها، وجعل للفقير فيها نصيباً، وحرم الربا الذي كان أساس الاقتصاد الجاهلي، أما على المستوى السياسي فقد حرم النظام القبلي القائم على العنصرية والتعصب للجنس، وعوضه بنظام سياسي جديد، تكون فيه الولاية للأمة الإسلامية والحكم لله تعالى.

كانت كل هذه الإصلاحات الجذرية، التي جاء بها الإسلام ضد مصالح هذه الفئة من المنكرين سبباً لرفضهم لهذه الرسالة، حتى يحافظوا على ما أحرزوه من ثروات مادية ومكانة اجتماعية وسياسية، ولم يكن لهم طريق لإنكارها إلا بإنكار نبوة المصطفىﷺ، وادعاء أن ما جاء به ما هو إلا أساطير الأولين وسحر وكهانة، ولعل ما عرضوه عليهﷺ من ملك وجاه وسلطان لمساومته لخير دليل، حيث اعتقدوا أن النبي ﷺ يطلب ما يطلبونه، ومتى مكنوه من ذلك انضم إليهم وأمنوا مكره، لكن قوله ﷺ :"يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته.."[2] كان القول الذي أزهق الله به الباطل وأحق به الحق.

ولقد شبههم الله ﷻ بمن هو في الظلمات، لا يستطيع أن يخرج منها ليرى نور الهداية التي جاء بها النبي ﷺ، كما شبه ضيق صدورهم لتقبل الهداية كمن يصعد في السماء، كلما ارتفع إلى الأعلى اختنق من قلة الهواء المتنفس، يقول تعالى:﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا

1- سورة المؤمنون، الآيات 64- 71.

2- سيرة ابن هشام، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 265- 266.

فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

أما أهل الكتاب فكان رفضهم لنبوة المصطفى ﷺ يرجع أساساً إلى حقد دفين، حيث رأوا في نبوة محمد ﷺ سلباً للزعامة الدينية منهم، خاصة أنه ﷺ وجّه دعوته إلى جميع الناس من دون استثناء، ولم يقتصر على مخاطبة جنس معين.

وسنحاول في هذا البحث بيان الأسباب التي كانت وراء هذا الرفض، وكيف ردّ القرآن عليها؟.

1- سورة الأنعام، الآيات 122- 125.

الباب الأول

منهج القرآن في مناظرته لليهود

الفصل الأول

دوافع إنكار اليهود لدعوة النبي ﷺ وجحودهم لها

المبحث الأول

نشأة المواجهة بين اليهود والنبي ﷺ

جاء الإسلام، وآثار اليهودية المنحرفة في شبه الجزيرة العربية، تحديداً في يثرب المدينة التي هاجر إليها النبي ﷺ بعد أن واجه الاضطهاد الكبير من طرف عشيرته في مكة، ومع أن أهل المدينة استقبلوا النبي ﷺ برحابة صدر، واعتنقوا الإسلام قبل مجيئه ﷺ، إلا أن هناك عناصر أخرى معتنقة للديانة اليهودية كانت تتربص قدومه ﷺ، وتستعد بوسائل وأنماط شتى منذ أن علمت بصدوعه بالدعوة الإسلامية، خصوصاً أن الدعوة التي جاء بها النبي ﷺ ليست مقصورة على الأميين من العرب، بل موجهة أيضاً لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، فهي دعوة عالمية عامة شاملة ومتممة لكل ما سبقها من الأديان الكتابية، ومصححة لها، ومهيمنة عليها، يقول الله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ [1]، وقوله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ ﴾ [2]، فكان لذلك الأمر أثر كبير في استفزاز هذه الفئة التي تدَّعي أنها تمثل الدِّين، وأنها المسؤولة عن حمايته، بل الوصية عليه، ولا يمكن أحداً في اعتقادها أن يسلب منها هذه الوصاية.

وحيث إن اليهود كانوا يمثلون طبقة أهل العلم والدين في المجتمع، فقد أعطوا أنفسهم حق التدخل في النصوص الدينية، عن طريق تفسيرها، بل وبالتعبير القرآني الأدق تبديلها وتحريفها، وبلغ خبثهم أن كتاب التلمود الذي هو أقوال العلماء وتفسيراتهم للتوراة أصبح أكثر قدسية من التوراة التي يعتقدون أنها من عند الله، بل إن كلام العلماء عندهم أقوى من كلام الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، جاء في كتابهم التلمود :"إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها، ولو بأمر الله، وقد وقع يوماً الاختلاف بين الباري وعلماء اليهود في مسألة، فبعد أن طال الجدال تقرر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابين، واضطر الله إلى أن يعترف بغلطه بعد حكم الحاخام المذكور"[3].

1- سورة آل عمران، الآيات 1- 3.

2- سورة المائدة، الآية 48.

3- التلمود ص 74، نقلاً عن "الكنز المرصود في قواعد التلمود"، ترجمة الدكتور يوسف نصر الله، قدم له مصطفى أحمد الزرقا والدكتور حسن ظاظا، دار القلم- دمشق، دار العلم- بيروت، الطبعة الثانية، 1999م، ص 53.

ويُسجل القرآن عملهم هذا في عدة آيات، مبيناً أن هدفهم مادي محض، قال تعالى:

- ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (1).

- وقال أيضاً: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (2).

- وقال أيضاً: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ (3).

وبمجيء الإسلام افتضح أمرهم، وسُلبت منهم أهم الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، إنها الرئاسة الدينية التي نص القرآن على نفيها عن النبي ﷺ نفسه، وعن كل شخص أياً كان، وفي هذا نصوص كثيرة، قال تعالى:

- ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (4).

- ومثله قوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ (5).

- وقوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (6).

- وقوله: ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (7).

كما أكد مبدأ المسؤولية الفردية في الإيمان والطاعة، يقول تعالى:

- ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (8).

1- سورة البقرة، الآية 75.
2- سورة البقرة، الآية 79.
3- سورة النساء، الآية 46.
4- سورة الأنعام، الآية 52.
5- سورة الأنعام، الآية 107.
6- سورة الشورى، الآية 48.
7- سورة المائدة، الآية 99.
8- سورة يونس، الآيتان 40- 41.

- ويقـــــــول: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (1).

ومع أن كتبهم المعتمدة أشارت إلى نبوة محمدﷺ، فكانوا يرتقبون خروجه في ذلك الزمن ومن تلك المنطقة، إلا أنهم أنكروا نبوته ﷺ، وسحبوا اعترافهم بهذا الدين الجديد، وكتموا الشهادة بصحة نبوتهﷺ، ذلك لأنهم كانوا يتطلعون إلى أن يكون الرسول الأخير فيهم ومنهم، فلما حدث عكس ما كانوا يتوقعون أخذتهم العزة بالإثم، وعدُّوا توجيه الدعوة إليهم إهانة، يقول القرآن في وصفهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2)، وفي آية أخرى:﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (3)، ويفضح القرآن في عدة آيات حنقهم وموقفهم العدائي من الدعوة، يقول الله سبحانه وتعالى:

- ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (4).

- وقـــال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (5).

- وقـال: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (1).

1- سورة النور، الآية54.

2- سورة البقرة، الآية 89.

3- سورة البقرة، الآية 101.

4- سورة البقرة، الآية 105.

5- سورة البقرة، الآية 109.

بل يخبر الله تعالى أنه أخذ العهد والميثاق على أولي العزم وبقية الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام في إقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق، فمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ، ثم جاء رسول من بعده، فواجبه أن يؤمن به وينصره، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته يقول عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (2)، ولو أدرك موسى عليه السلام محمداً ﷺ ما وسعه إلا اتباعه كما جاء في الحديث الشريف، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:" قال رسول الله ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني"(3).

وقد جاء في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي أن اليهود كانوا يستنصرون على المشركين في الجاهلية بالنبي المرتقب ويقولون:"اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان"، وإذا سألهم العرب قالوا:"إن نبياً قد قرب زمانه، وسيكون لمن تبعه العز والنصر إلى يوم القيامة، ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم"(4). وقد ذكر ابن هشام عن رجال من الأنصار قالوا:"إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود: كنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حتى دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا به(5)". وعن ابن عباس أن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل

1- سورة البقرة، الآية 120.

2- سورة آل عمران، الآيتان 81 - 82

3- "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، دار النشر مؤسسة قرطبة- مصر المصورة عن الطبعة الميمنية، الجزء الثالث، ص 338.

4- "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي"، حسن إبراهيم حسن، دار الجيل- بيروت، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة، 1416هـ - 1996م، الجزء الأول، ص 110.

5- سيرة ابن هشام، مرجع سابق،الجزء الثاني، ص 38.

مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداوود بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله، وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [1] الآية"[2].

ولعل تصنيف القرآن لليهود على رأس أعداء الدين الإسلامي يحمل معاني كثيرة في هذا الباب، والواقع والتاريخ يؤكدان ذلك، فقد كان اليهود أشد خصوم الإسلام، يصنعون المكائد لرسول الله ﷺ، ويدبرون الحيل لإيذائه وقتله، وكثيراً ما تحالفوا مع المشركين لإطفاء نور الله ﷻ، "وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة، وسمّوه وسحروه وألّبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعنات الله المتتابعة إلى يوم القيامة"[3]، قال تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [4]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [5].

ولقد كان مفروضاً مع الهدي القرآني الذي حمل المنهج الجديد والمشعل المنير إلى الصراط المستقيم أن يكون أكثر أتباع الإسلام أهل الكتاب عامة واليهود خاصة، وذلك لأمرين أساسيين:

1- سورة البقرة، الآية 89.

2- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 88.

3- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 540.

4- سورة المائدة، الآية 82.

5- سورة الصف، الآية 8.

أولهما وجود رابط مشترك مُهِم، فكل هذه الأديان، الإسلام، والمسيحية واليهودية تدَّعي أنها أديان سماوية، فالقرآن والتوراة كلاهما ينبع من مصدر واحد هو الله ﷻ، وهدفهما واحد هو توحيد الله ﷻ، ويتفقان في أمور كثيرة، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في كثير من آياته، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2]، ولا يمكن الأشياء النابعة من مصدر واحد أن تختلف، ولا يمكن بحسب منطق العقل أن تنفر منه هذه الفئة، إلا إذا كان مخالفاً لرغباتها.

أما الثاني فهو أمر الله ﷻ الموجه مباشرة لأهل الكتاب بالإيمان بما نزَّل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بأبشع العقوبات، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [3].

لكن موقف اليهود كان عكس ذلك تماماً، فقد تمثل رد فعلهم تجاه النبي ﷺ والقرآن في الرفض الكامل، "وطبعاً فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد، فالرسول لم يكن من جنسهم، ليسكّن جأش عصبيتهم الجنسية التي كانت متغلبة على نفسياتهم وعقليتهم، ثم إن دعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب، وتطفئ نار العداوة والبغضاء، وتدعو إلى التزام الأمانة في الشؤون، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستتآلف فيما بينها، وحينئذ لا بد من أن تفلت من براثن اليهود، فيفشل نشاطهم التجاري، ويحرموا أموال الربا التي كانت تدور عليها رحى ثروتهم، بل ربما يحتمل أن

1- سورة هود، الآية 17.

2- سورة الأحقاف، الآية 12.

3- سورة النساء، الآية47.

تتيقظ تلك القبائل، فتدخل في حسابها الأموال الربوية التي أخذها اليهود، فتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التي أضاعتها إلى اليهود في تأدية الربا، وكان اليهود يدخلون كل ذلك في حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار في يثرب، ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة ضد الإسلام وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل يثرب، وإن كانوا يتجاسرون على إظهارها إلا بعد حين"[1]، وتصف لنا الآيات القرآنية هذا الموقف المتشنج في تفصيل دقيق، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

ولم يترك اليهود فرصة لتضليل الناس وإبعادهم عن طريق الحق مستغلين "علمهم" ومعرفتهم بالكتب السماوية ومنزلتهم الدينية، وذلك حين كان يلجأ إليهم الناس كونهم قدوة ومرجعاً في مجال الأديان الكتابية، ليرفعوا عنهم الحيرة والشك، ويسألوهم عن حقيقة ما يدعيه محمد ﷺ، وهل هو الذي سبقت الإشارة إلى مجيئه في كتبهم، وقد ثبت أن المسلمين أيضاً كانوا ممن يلجؤون إليهم، لولا نهي النبي ﷺ لهم، فعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، قال: فغضب وقال:"أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني"[3]، فرفض أكثرية أهل الكتاب للإسلام أثر سلبياً وعلى نحو كبير في باقي الأمم، ما دفع القرآن إلى شنِّ حملة واسعة على بني إسرائيل، "هذه الحملة كانت ضرورية أولاً وقبل كل شيء لتحطيم دعاوى اليهود، وكشف كيدها، وبيان حقيقتها وحقيقة دوافعها في الدس للإسلام والمسلمين، كما كانت ضرورية لتفتيح عيون المسلمين وقلوبهم على هذه الدسائس والمكايد التي توجه إلى

1-"الرحيق المختوم"، صفي الرحمن المباركفوري، دار الفكر، الطبعة الأولى: 1411هـ-1991م، ص 163- 164.

2- سورة البقرة، الآيات 40- 44.

3- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 613.

مجتمعهم الجديد، وإلى الأصول التي يقوم عليها، كما توجه إلى وحدة الصف المسلم لخلخلته وإشاعة الفتنة فيه"[1].

وقال الله ﷻ محذراً المسلمين من خبثهم: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[2].

ومن إنصاف الحق ﷻ لهم أنه استثنى " صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم وأقاموه، ولم يبدلوه ولا حرفوه، ويسجدون شكراً لله ﷻ على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل إليه الكتاب"[3]، قال تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[4].

وإذا كان اصطدام اليهود بالدعوة الإسلامية بارزاً في الفترة المدنية، فإن ذلك لا يعني أن اليهود كانوا غافلين عن وجود الدعوة الجديدة التي جاء بها النبيﷺ بمكة، خصوصاً أن القرآن "كان منذ الوقت المبكر من العهد المكي يؤكد وحدة المصدر الذي صدر منه القرآن والكتب السماوية، ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب وتأييد القرآن والنبي ﷺ للأنبياء السابقين والكتب السابقة والتنويه بهم، واستشهد وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة رسالته النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية، والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها، كما يلهم طبيعة

1- "في ظلال القرآن"، سيد قطب، دار الشروق- القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة، المجلد الأول، الجزء الأول، ص 64.
2- سورة البقرة، الآيات 75- 78.
3- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 405،
4- سورة الإسراء، الآيات 107- 109.

استجابتهم للدعوة الإسلامية واندماجهم فيها ونصرها وتأييدها"[1]، وهو ما جعلهم متتبعين لمسيرة هذا الدين الجديد منذ مرحلته الأولى، وهو ما أشار إليه إسرائيل ولفنسون من أن "المراجع العربية لم تشر إلى حركات يهود يثرب ونياتهم تجاه بيعة العقبة الكبرى، كأن الدعوة الإسلامية لم تصل إليهم، وكأنهم لم يقفوا على شيء من أعمال البطون اليثربية العربية، ونحن نرجح أن اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة، لأنها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية، خصوصاً إذا لاحظنا تجاه الدعوة الإسلامية صوب المدينة وميل زعماء الخزرج إلى الاتصال بالرسول، ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد، ما جعل زعماء بني النضير وقريظة يراقبون حركاتهم جميعاً، ثم نعلم أن الإسلام لم ينتشر خفية في يثرب، وكيف كان مصعب بن عمير يدعو الناس إلى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون، ثم إننا نعلم أن عدداً من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج.

فمن البعيد إذاً أن يجهل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الأخبار، وكانت العلاقات بين اليهود وقريش في غاية الصفاء، لذلك نفرض أنه إذا لم يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج فإنهم - لابد - ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود، ليعملوا على إحباط أعمال المسلمين في المدينة، وكذلك كان، فإن الذي يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف زعيم بني النضير وبين الرسول، يرى أن ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الإسلامية منذ وصلت أرض يثرب والعداء الذي استفحل أمره بين الجبهتين يؤيد ما نقول"[2]، إلا أن محاولات الوثنية وحليفتها اليهودية أخفقت، وأعقب كفاح الرسول ﷺ الدائب وثبات أصحابه وصمودهم انتصاراً عظيماً تمخض عنه الهجرة إلى يثرب وإنشاء دولة الإسلام فيها.

إن وعي القرآن لوجود هذه المعارضة القوية يفسر لنا السر في تأكيده استعمال أكثر الأساليب حسناً وحكمة للدعوة إلى الإسلام مع الناس عموماً وأهل الكتاب خصوصاً، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا

1- "دراسة في السيرة"، عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة – دار النفائس، الطبعة العاشرة، 1406هـ-1986م، ص 278.

2- "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ص 106- 108، نقلاً عن: "دراسة في السيرة" مرجع سابق، ص 322- 323.

3- سورة النحل، الآية 125.

تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [1].

ومن معجزات القرآن الخالدة "أن صفتهم التي دمغهم بها هي الصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا. ما جعل القرآن يخاطبهم في عهد النبيﷺ، كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسىعليه السلام وعهود خلفائه من أنبيائهم، كأنهم جبلة واحدة، سماتهم هي هي، ودورهم هو هو، وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان"[2].

1- سورة العنكبوت، الآية 46.

2- "في ظلال القرآن" مرجع سابق، المجلد الأول، الجزء الأول، ص 32 - 33.

المبحث الثاني

سيرتهم مع النبي ﷺ: المكيدة ونقض المواثيق

أدت الأسباب التي ذكرناها إلى نشوب الصراع والمواجهة بين اليهود والمسلمين عامة، واليهود والنبي ﷺ خاصة، فقد رأى اليهود في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة واتخاذها مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية منافساً جديداً يوشك أن يقضي على نفوذهم، وينتزع منهم لواء الزعامة الدينية الذي يتجاذبونه مع النصارى، ويهدد جميع مصالحهم القائمة على أرستقراطية دينية، فرَضوها على العرب بقولهم إنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه.

لمّا رأوا ذلك كله أيقنوا ألا سبيل للمحافظة على هذه المصالح وضمان اطمئنانهم في الجزيرة العربية إلا بالقضاء على محمد ﷺ وأتباعه، فكانوا يكرهون النبي ﷺ أشد الكره، وينظرون إلى دعوته منذ أول يوم طلع عليهم -عليه الصلاة والسلام- من أفق يثرب بعين الخوف والترقب، ثم ازداد خوفهم، وظهر حسدهم له عندما رأوا الناس يدخلون في الدين الجديد الذي جاء به أفواجاً أفواجاً، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدس مرة وبالمراء والجدال مرة أخرى، وينتهزون الفرص لمحاولة قتل النبي ﷺ تارة وتأليب سائر العرب عليه وعلى المسلمين وتحزيب الأحزاب عليهم تارة أخرى، وأبرز ما قام به اليهود من جهود في حربهم للإسلام:

- كانوا أول من أعلن رفض الإسلام في المدينة على نحو جماعي وعلني.
- كانوا أول من سنّ خلق النفاق في الدين، كما تؤكد كل مصادر التاريخ الإسلامي.
- سنّوا حرباً عاتية على الإسلام في كل مجال وكانت حرباً مخططة .

ويصف لنا ابن إسحاق سلوك النفاق الذي نهجوه مع النبي ﷺ، فيقول:"ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم، وأضيف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسي (بقي) على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنة من القتل ونافقوا في السر، وكان هواهم مع يهود، لتكذيبهم النبي ﷺ وجحودهم الإسلام، وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه، ويأتونه باللبس، ليلبسوا الحق

بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام، كان المسلمون يسألون عنها"[1]، ولم يسكت القرآن عن سلوكهم هذا، بل فضحهم، وحذّر المسلمين منهم، وأعلمهم بعداوتهم لهم في الظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

واستعمل القرآن معهم أسلوب الترغيب مرة وأسلوب الترهيب مرة أخرى، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة، لعلهم يرجعون إلى الحق والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره، يقول تعالى موجهاً إليهم الأمر بالدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[3].

ومع ذلك كله لم تزدهم دعوة القرآن إلا نفوراً وعناداً، واستهانة بقدرة الله ﷻ وعظمته، ويظهر هذا جلياً بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها، قال:"حدثت عن صفية بنت أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة،

1- السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 115.

2- سورة البقرة، الآية 109.

3- سورة البقرة، الآيات 40- 48.

ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟، قال: نعم والله، قال أتعرفه وتثبته؟، قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت"[1]. وهذه قصة فنحاص اليهودي مع أبي بكر الصديق ﷺ تُسجل موقف علمائهم من النبي ﷺ ومن دعوته، فعن ابن عباس ﷺ، قال: دخل أبو بكر الصديق ﷺ بيت المدراس، فوجد من يهود أناساً كثيراً، قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر، يقال له أشيع، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر ﷺ عليه، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: " ما حملك على ما صنعت؟، فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك، غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[2] الآية"[3].

وقد سوّغوا رفضهم هذا لرسالة المصطفى ﷺ بعدم إتيانه بقربان تأكله النار، كما كان يفعل أنبياؤهم السابقون، فردّ القرآن قولهم هذا، وبيّن تهافته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ

1- السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 518،519.

2- سورة آل عمران، الآيتان 181- 182.

3- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 342.

﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1]، أي لقد جاءكم أنبياء من قبل محمد ﷺ بالحجج والبراهين وبنار تأكل القرابين المتقبلة، فلمَ قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة، وقتلتموهم إن كنتم تتبعون الحق وتنقادون للرسل، ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾[2]، ولقد صدق قول الله تعالى فيهم: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[3].

ولم يقتصر رفضهم على هذا الحد فقط، بل تحول إلى مؤامرات دنيئة لقتل النبي ﷺ والتخلص منه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال النبي: اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود فجمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟، فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: من أبوكم؟، قالوا: فلان، فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان، قالوا: صدقت، قال: فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: من أهل النار؟، قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً، ثم قال: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟، قالوا: نعم، قال: ما حملكم على ذلك؟، قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح وإن كنت نبياً لم يضرك"[4].

ومن محاولات قتل النبي ﷺ التي باءت بالإخفاق أيضاً ما رواه ابن إسحاق، قال:" ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك

1- سورة آل عمران، الآية 183.

2- سورة آل عمران، الآية 184.

3- سورة الأنعام، الآية 91.

4- مختصر صحيح البخاري، مرجع سابق، رقم الحديث 2998.

القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبيَّ ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ، حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم"[1].

ومن أساليبهم الدنيئة لمحاربة النبي ﷺ والدين الذي جاء به أنهم كانوا إذا سُئلوا عن شيء مما في كتبهم ينتهزون الفرصة ليكسبوا ولاء المشركين بالغض من شأن الإسلام بتحريف الكلام عن مواضعه وإلباس الحق بالباطل، يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله ﷻ قصداً منهم وافتراء، معلنين عصيانهم للنبي ﷺ وكفرهم وعنادهم، وهم يعلمون ما عليهم من ذلك من الإثم والعقوبة، وهذه قمة الجحود والعصيان، قال تعالى:

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

كما كانوا حريصين على إشاعة العداء بين المسلمين، الأوس والخزرج خصوصاً، فقد أخرج ابن إسحاق وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مرَّ شاس بن قيس، وكان يهودياً على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون، فغاظه ما رأى من تألفهم بعد العداوة، فأمر شاباً معه من اليهود أن يجلس بينهم، فيذكرهم يوم بعاث ففعل، فتنازعوا وتفاخروا، حتى وثب رجلان، أوس بن قطي من الأوس، وجبار بن صخر من الخزرج، فتقاولا وغضب الفريقان وتواثبوا للقتال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم، فسمعوا وأطاعوا، فأنزل الله في أوس وجبار ومن كان معهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا

1- السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص 108.

2- سورة النساء، الآية 46.

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [1] وفي شاس بن قيس ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [2].

وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يناظرهم ويطالبهم بالإتيان بالتوراة وتحكيمها فكانوا يتهربون، فعن ابن عباس قال:" دخل رسول ﷺ بيت المدراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن يزيد : على أي دين أنت يا محمد؟، قال: على ملة إبراهيم ودينه، قال: فإن إبراهيم كان يهودياً، فقال لهما رسول الله ﷺ: فهلمّا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه، فنزل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [3]، وعن ابن عمر أن يهوداً أتوا النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال: ما تجدون في كتابكم؟، قالوا: نسخم وجوههما ويخزيان، قال: كذبتم، وإن فيها الرجم، فأتوا التوراة فاقرؤوها إن كنتم صادقين، فجاؤوا بالتوراة وجاؤوا بقارئ لهم أعور، فقرأ حتى إذا انتهى إلى موضع منها وضع يده عليه فقيل: ارفع يدك، فرفع، فإذا هي تلوح، فقالوا، يا محمد إن فيها الرجم، وكذا كنا نتكاتمه بيننا، فأمر بهما رسول الله ﷺ كذا فعل[4].

ومع أن النبي ﷺ كان على علم بمعاداتهم له وللمسلمين إلا أنه كان لا يعاملهم بالمثل، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن يهوداً أتوا النبي ﷺ فقالوا: السلام عليكم فقالت عائشة: وعليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش، قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟، قال: أو لم تسمعي ما قلت، رددت عليهم فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في"[5].

1- سورة آل عمران، الآية 100.

2- سورة آل عمران: الآية: 99.

3- سورة آل عمران، الآيتان 23- 24.

4- "السنن الكبرى" النسائي، مراجعة د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية بيروت 1411هـ -1991م، الجزء الرابع، ص 293.

5- "الأدب المفرد"، محمد بن إسماعيل البخاري، مراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية- بيروت، 1989م- 1409هـ، رقم الحديث 311.

كما أنه ﷺ بعدما رسَّخ قواعد المجتمع الإسلامي في المدينة حرص عليه الصلاة والسلام على توفير الأمن والسلام بالمنطقة، فعقد مع اليهود معاهدة، ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التي جرت بين المسلمين أنفسهم، وهذه بنود المعاهدة[1]:

- إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، كذلك لغير بني عوف من اليهود.
- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.
- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
- وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر من دون الإثم.
- وإنه لم يأثم امرؤ بخليفة.
- وإن النصر للمظلوم.
- وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وإن أهل يثرب حرام في جوفها لأجل هذه الصحيفة.
- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله ﷻ، وإلى محمد رسول الله ﷺ.
- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.
- وإنه لا يحول هذا الكتاب ظالم أو آثم.[2]

ولم يُسلم من اليهود إلا قلة قليلة، منهم عبد الله بن سلام ومخيرق، وقصة إسلامهما توضح خبثهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين، كان عبد الله بن سلام حبراً من فطاحل علماء اليهود، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة في بني النجار جاءه مستعجلاً، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به ساعته ومكانه، ثم قال له: إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فأرسل رسول الله ﷺ، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله بن سلام البيت، فقال رسول الله

1- "الرحيق المختوم"، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص 173- 174.

2- يمكن الرجوع إلى كتاب، "سيرة ابن هشام" الجزء الأول، ص503 - 504.

ﷺ: أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟، قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟، فقالوا: أعاذه الله من ذلك (مرتين أو ثلاثاً)، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه"[1]، أما مخيرق كما روى ابن إسحاق: فكان حبراً عالماً وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أُحُدُ، وكان يوم أحد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه، إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ، يصنع بها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ يقول: مخيرق خير يهود، وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها[2].

وكما قال صاحب الرحيق المختوم:"هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحرشات في المسلمين، وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الإسلامية، وقد كان لهم خطط شتى في هذا السبيل، كانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار ثم يكفرون آخره، ليزرعوا بذور الشكوك في قلوب الضعفاء، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالي، فإن كان لهم عليه يتقاضوا صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلوا بالباطل، ويمتنعوا عن أدائه، وكانوا يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل"[3].

"فلما أخفقت هذه المحاولات وأخفق العرب في القضاء على محمد ﷺ جمع اليهود شملهم، وتحزبوا أحزاباً، وقاموا بأنفسهم للإغارة على المدينة، ليدهموا المسلمين فيها، فسعى بذلك يهود خيبر إلى بني عمهم في تيماء وفدك ووادي القرى، ولا غرو فإن في خيبر أشراف بني النضير الذين ساروا إليها بأموالهم، وأصبحت بيدهم دفة الأمور فيها.

ولما علم الرسول ﷺ بتأهب اليهود على المدينة والقضاء على الإسلام في معقله، عاجلهم وسار إلى خيبر، معقد هذا الحلف وصاحبة الزعامة فيه، والرأس المدبر له والمهيمنة عليه، فقضى عليها، ليتفرغ لأداء الرسالة وتبليغ دين الله إلى خلقه"[4].

1- السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 118.

2- السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 119.

3- "الرحيق المختوم"، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص 215.

4- "تاريخ الإسلام"، حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 111.

المبحث الثالث

خصائص الشخصية اليهودية

رسم القرآن ملامح الشخصية اليهودية رسماً واضحاً بتسجيله للمواقف الكثيرة التي تكشف الخلق اليهودي، وتحكي تاريخهم الحافل بصور الكفر والكيد، والغدر والخيانة، فقد تلوثت أيديهم بكل منكر قبيح، بدءاً من السعاية والوشاية بالأنبياء، وانتهاء بقتلهم وسفك دمائهم، وبين هاتين الجريمتين جرائم متعددة وصور مختلفة من التمرد والعصيان، تظهر القسوة والفظاظة التي تميزت بها قلوبهم المريضة، كما وصفهم القرآن ذلك الوصف البليغ، يقول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (1).

والوقوف على ملامح هذه الشخصية يثير الاستغراب والتعجب، فهي شخصية معقدة في طريقة تفكيرها وفي تركيبتها النفسية، إذ حتى محاولات الإصلاح التي قادها الأنبياء والرسل لتقويم اعوجاج اليهود، إن لم تكن قد باءت بالإخفاق الكلي فقد اقتربت منه، وما من نبي إلا عانى منهم أشدّ المعاناة، وشكاهم إلى الله سبحانه، بل من أنبيائهم من لعنهم لشدة عصيانهم وكثرة اعتدائهم، كما حكى عنهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ (2).

ولم تكن هذه اللعنة وحدها التي نزلت باليهود فحسب بسبب شرهم وعتيهم في الأرض فساداً، إذ لعنهم الحق سبحانه وتعالى، وغضب عليهم وطردهم من رحمته، عدا من سلم من هذه الآفات اليهودية، واتبعوا أنبياءهم بإخلاص وصدق، والذين اتبعوا الحق الذي جاء به محمد ﷺ، فكانوا من جنوده ورجاله.

وقد مدح القرآن مؤمنيهم كما ذمّ فاسقيهم، ولا يتعامل القرآن مع بني إسرائيل أو اليهود جنساً أو قوماً، يُقبل بأكمله أو يُرفض بأكمله، وإنما أفراد ينتمون إلى معسكر

1- سورة البقرة، الآية 74.

2- سورة المائدة، الآية 78.

الإيمان أو معسكر الكفر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [2].

ثم إن الظاهرة الغالبة على بني إسرائيل، كما سجلها القرآن، كانت الكفر والعصيان، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [4]، وقال تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [5].

وقد وردت في القرآن آيات كثيرة[6]، تقرر حكم الله ﷻ على اليهود، وقضائه عليهم باللعنة والغضب والطرد من رحمته، منها قول الله ﷻ: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن

1- سورة السجدة، الآيتان 23- 24.

2- سورة النساء، الآيات 160- 162.

3- سورة المائدة، الآية 66.

4- سورة آل عمران، الآية 110

5- سورة آل عمران، الآيات 113- 115.

6- لعن الله ﷻ اليهود في القرآن خمس عشرة مرة في المواضع التالية: سورة البقرة الآيتين 87 - 88، سورة البقرة الآية 89، سورة البقرة الآية 159، سورة آل عمران الآية 87، سورة النساء الآية 46، سورة النساء الآية 47، سورة النساء الآيتين 51 - 52، سورة المائدة الآية 13، سورة المائدة الآية 60، سورة المائدة الآية 64، سورة المائدة الآيتين 78- 79، سورة الأحزاب الآية 57، سورة الأحزاب الآيتين 60- 61.

مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [1].

"اتصف اليهود بصفات أخلاقية عجيبة، حيث توافرت لهم مجموعة من الرذائل الأخلاقية والمفاسد السلوكية على نحو عجيب، لعلها لم يتوافر مثلها لأمة أخرى من الأمم، ورسخت في نفوسهم رسوخاً ثابتاً، لعلها لم ترسخ مثله في أمم أخرى، واتخذت هذه الرذائل والمفاسد والقبائح والنقائص والأمراض والآفات خطوطاً ثابتة، وعلامات بارزة، ومسارات مستقرة في النفسية اليهودية العجيبة المعقدة، فنمت في أعماقها، وتغلغلت في أغوارها، وهناك تفاعلت ونمت وترعرعت، وسرت في كل جوانب هذه النفس ومجالاتها ونوازعها، ثم أرسلت فروعها وظلالها إلى الحياة العملية، والممارسات السلوكية، والارتباطات الخارجية للشخصية اليهودية في حركتها الظاهرية وصلاتها الحياتية، فكانت هذه الشخصية الممزقة المنحرفة تصدر من هذه الرذائل والانحرافات الأخلاقية، وصارت انعكاساً خارجياً لها، وصورة مجسمة لمعانيها وأبعادها، **ونموذجاً إنسانياً مشوهاً شائهاً، يعد مجمع نقائض ومجموعة رذائل وتجمع قبائح ومفاسد**"[2].

1- سورة النساء، الآيتين 46- 52.

2- "الشخصية اليهودية من خلال القرآن، تاريخ وسمات ومصير"، صلاح عبد الفتاح الخالدي، سلسلة من كنوز السنة 3، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1419هـ-1998م، ص193.

وما سر اهتمام القرآن ببيان كيدهم لأنبيائهم، واحتيالهم على المعاصي، ونشر الفساد، إلا ليكشف لنا خطرهم، ويفضح نياتهم الدفينة التي تسعى إلى تدمير الآخر وإذائه بوسائل شتى من دون الارتداع بأي رادع ديني أو أخلاقي أو إنساني.

ولنسجل بعضاً مما سطره القرآن عنهم من مواقف، تجسد السمات العامة لنموذج الشخصية اليهودية:

سوء الأدب مع الله ﷻ:

بيَّن القرآن في أكثر من موضع سوء أدبهم مع الله ﷻ، ووصفهم له جل جلاله بما لا يليق به من صفات، وبما هو منزه عنه سبحانه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومما نسبوه إلى الحق سبحانه صفة البخل اللازمة لهم، فعبروا عن ذلك بأن "يد الله مغلولة": ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [1]، كما وصفوه جل جلاله بالفقر، ونسبوا إلى نفسهم صفة الغنى، فحكى عنهم القرآن ذلك القول الشنيع قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [2].

كما لم يتنزهوا عن الوقوع في الشرك بالله ﷻ واتخاذ آلهة أخرى في غياب نبيهم موسى ؑ، فقد عبدوا العجل، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [3] ويقول تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [4].

جريمة قتل الأنبياء:

فقد ثبت أن اليهود قتلوا كثيراً من الأنبياء الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن دعوتهم عليهم السلام تخالف هواهم المريض ومزاجهم المنحرف، فلا يتبعون إلا من وافق مزاجهم، ولا يصدقون ما جاءهم به الأنبياء، إلا ما كان فيه هوى وشهوة ومصلحة، وما سواه مرفوض وباطل، ولو كان هو الحق.

1- سورة المائدة، الآية 64.

2- سورة آل عمران، الآية 181.

3- سورة البقرة، الآية 51.

4- سورة الأعراف، الآية 138.

وقد أخبرنا القرآن عن هذه المزاجية اليهودية في قوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (1)، وأنكر القرآن على اليهود هذا الموقف الباطل والنظرة الظالمة فقال لهم: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (2).

فقد آذوا موسى عليه السلام، وافتروا على هارون عليه السلام، وآذوا داوود وابنه سليمان عليهم السلام، وقتلوا نبي الله زكريا عليه السلام، وقتلوا النبي يحيى بن زكريا عليهما السلام، وزعموا أنهم قتلوا النبي عيسى عليه السلام، وافتخروا بذلك، فوبخهم القرآن بقوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ (3)، وحاولوا قتل المصطفى ﷺ مراراً، ولكن الله ﷻ حفظه من شرورهم وخيب محاولاتهم.

يقول الحق سبحانه وتعالى حاكياً جرائمهم المتكررة في حق الأنبياء الكرام:

- ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ (4).

- ومثله قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (5).

- وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (6).

1- سورة المائدة، الآية 70.
2- سورة البقرة، الآية 87.
3- سورة النساء، الآية 157.
4- سورة البقرة، الآية 61.
5- سورة البقرة، الآية 91.
6- سورة آل عمران، الآية 21.

- وقـال: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [1].

- وكذلك يقول: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [2].

- وقـال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [3].

نقض العهود والمواثيق:

أخذ الله عز وجل على اليهود مجموعة من المواثيق والعهود، ليلتزموا بها، ويأخذوا بها على عاتقهم، بينهم وبين الله ﷻ، وبينهم وبين أنبيائهم، وبينهم وبين الآخرين، لكنهم استخفوا بها، ولم يراعوا حقها، بل رموا بها عرض الحائط، وأعلنوا تمردهم وعصيانهم ونقضهم لها.

"وكلمة ميثاق ومشتقاتها – موثق، موثقهم، وميثاقكم، ميثاقهم- ذكرت في القرآن ثماني وعشرين مرة، تتحدث عن ميثاق الله المأخوذ على اليهود، وتسجل عليهم نقضهم له" [4].

وقد أشار القرآن إلى نماذج من العهود والمواثيق التي أخذت عليهم، نذكر منها:

- ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [5].

1- سورة آل عمران، الآية 112.

2- سورة آل عمران، الآية 181.

3- سورة النساء، الآية 155.

4- "الشخصية اليهودية"، صلاح عبد الفتاح الخالدي، مرجع سابق، ص 243.

5- سورة البقرة، الآيتان 63 - 64.

- وقولـــــه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (1).

- وقولـــــه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (2).

ويشير القرآن إلى تأصل هذا الخلق الذميم في الشخصية اليهودية، واستمراره طوال المسيرة اليهودية الناقضة للعهود والمواثيق، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (3).

"والذي يلفت النظر في الآية كلمة "كلما"، وهي تدل على أن نقض العهد عملية متكررة عند اليهود، فكل عهد يعقدونه يقومون بنقضه، أياً كان الطرف الآخر الذي عقدوه معه، لأن كلما حرف يفيد التكرار والاستمرار، ويدل على تحقق وتوافر وجود جوابها عند وجود شرطها، كلما حرف شرط، وفعلها في الآية "عَاهَدُوا عَهْداً" - فيتكرر وجود الجواب بتكرار وجود الفعل"(4).

الفساد في الأرض:

من أبرز سمات الشخصية اليهودية أيضاً الرغبة في الفساد والحرص على الإفساد في الأرض، فهم يسعون دائماً لإشعال فتيل الحرب والقتل والتخريب والتدمير، وما دونوه في كتابهم المقدس بقلم من دماء يظهر رغبتهم العميقة في الإفساد ونهمهم البالغ للحروب التي تحقق هذا الإفساد، وتاريخهم الدموي يشهد عليهم بذلك، فمعظم الحروب في

1- سورة البقرة، الآية 93.

2- سورة آل عمران، الآية 187.

3- سورة البقرة، الآيات 99 - 101.

4- "الشخصية اليهودية"، صلاح عبد الفتاح الخالدي، مرجع سابق، ص 244.

العالم خطط لها اليهود وأشعلوا نيرانها، لينشروا الفساد في الأرض، ويحققوا أهدافهم على حطام البشرية وضحاياها وجماجمها وأشلائها.

وقد أخبرنا القرآن بتمكن هذا الخلق في اليهود، فقال تعالى:

- ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [1].

- وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2].

الحسد:

وهذا الخلق الذميم هو أيضاً من صفات اليهود التي وصفهم بها الحق سبحانه في القرآن، وهي دليل على تشوه في النفس، وتعقيد في الشخصية والكيان الإنساني.

وهذا الداء الخطير متمكن فيهم مسيطر على نفوسهم، يحكم نظرتهم للآخرين، فلا يريدون أن ينعم الله على أحد غيرهم.

وهذا الحسد البغيض هو الذي حمل اليهود على معاداة النبي ﷺ ومحاربته، ورفض رسالته، مع علمهم أنه رسول الله، لا لشيء إلا لأنه ليس يهودياً، فاستعملوا كل الوسائل الممكنة لإطفاء نور الله، كما حسدوا المسلمين أيضاً، لأن الله أنعم عليهم بالإسلام، فحاربوهم وصمموا على أن يردوهم كفاراً بعد إيمانهم، وسلكوا الوسائل المختلفة لتحقيق هذه الغاية، يقول تعالى:

- ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [3].

- ويقول: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [4].

1- سورة الإسراء، الآية 4.

2- سورة المائدة، الآية 64.

3- سورة البقرة، الآية 105.

4- سورة البقرة، الآية 109.

- وكذلك: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [1].

هذا بعض ما سجله القرآن عن سمات الشخصية اليهودية، وما حكى من رذائل اليهود وقبائحهم، وإن سلسلة هذه الرذائل لا تقف عند هذا الحد، بل ذكر القرآن أيضاً:

الصد عن سبيل الله: يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [2].

كتم الشهادة والحق: يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [3].

المسارعة في الإثم والعدوان: يقول الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ [4].

الحرص على الحياة: يقول الله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [5].

شدة العداوة للمؤمنين وبغضهم: يقول الله تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [1]، ويقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

1- سورة النساء، الآية 54.

2- سورة آل عمران، الآيتان 98- 99.

3- سورة البقرة، الآية 146.

4- سورة المائدة، الآية 41.

5- سورة البقرة، الآية 96.

تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [2].

تحريف التوراة وتزييف كلام الله والافتراء عليه: يقول الله تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [3]، ويقول الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [4].

أكل الربا والمال الحرام: يقول الله تعالى:﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [5].

الجبن وحب الحياة: يقول الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [6]، ويقول الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [7]، ويقول الله تعالى: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [8].

وحدتهم ظاهرية وحقيقتهم اختلاف، الذلة والمسكنة، البخل، السفه، الفجور، الضلال عن الصراط المستقيم، الخيانة.

1- سورة المائدة، الآية 82.
2- سورة آل عمران، الآيتان 118- 119.
3- سورة البقرة، الآية 75.
4- سورة النساء، الآية 46.
5- سورة المائدة، الآية 62.
6- سورة المائدة، الآية 22.
7- سورة المائدة، الآية 24.
8- سورة الحشر، الآية 14.

الفصل الثاني

نقض مزاعم يهودية

المبحث الأول

نقض مزاعم اليهود بشأن إبراهيم عليه السلام

يقدم القرآن إبراهيم عليه السلام في أشرف صورة، تمثل أعلى مراتب العبادة وأسمى منازل الأخلاق والمبادئ، متميزة بصدق الإيمان والطاعة التي لا معصية معها والامتثال لرب العالمين، أساسها حب الله فوق حب المال والولد، فلم يصب إبراهيم عليه السلام بابتلاء في حياته في مختلف مراحل عمره إلا كان مثالاً للإيثار والتضحية بنفسه وماله وولده، يقاوم الباطل، ويدافع عن الحق بكل قوته لإعلاء كلمة "لا إله إلا الله" وترسيخها في النفوس وبناء الشخصية القويمة واستبدال القلوب السليمة بالقلوب السقيمة، ولم يمت حتى أوصى بها بنيه: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [1].

ففي تضحياته عليه السلام بيَّن استعداده التام لتنفيذ أوامر الله تعالى فيما أحب أو كره من دون تبرم ولا تذمر، متحلياً بالتقوى والطاعة والشكر والصبر، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [2]، ومن تضحياته عليه السلام استجابته الفورية لله رب العالمين، حين طلب منه في المنام أن يقدم ابنه الوحيد[3] الذي

1- سورة البقرة، الآية 132.

2- سورة البقرة، الآية 131.

3- أوردت التوراة بشأن قصة ذبح إبراهيم لابنه أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، وليس إسماعيل عليه السلام، جاء في سفر التكوين الإصحاح 22: "وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم، فقال له يا إبراهيم، قال: نعم ها أنذا، فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق إلى أرض المريا وأصعده هناك، فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحاق ابنه، وأخذ بيده النار والسكين، وكلّم إسحاق إبراهيم أباه، وقال يا أبي هو ذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة، فقال إبراهيم: الله يرى له الخروف للمحرقة يا بني، وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه..." . ويبدو من هذا النص أن اسم إسحاق يتكرر عدة مرات، حتى يتوهم القارئ أن الذبيح هو إسحاق فعلاً، وذلك هو هدف محرري التوراة حرصاً على أن يكون إسحاق الذي يدعون الانتساب إليه هو الذبيح البطل الذي جاد بنفسه في طاعة ربه، وهو في حالة صغره، ولكن هذه الحقيقة يمكن كشفها من النص نفسه، فلفظ إسحاق مقحم في غضون القصة، "والدليل على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد الذي ليس له سواه، إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله، وإذا رجعنا إلى إسحاق لم نجده وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام، لأن إسحاق ولد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة، كما هو صريح في التوراة، وأيضاً فإن ذبح إسحاق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم من أن إسحاق سيكون له نسل، وحقيقة أخرى تقول إن مسألة الذبح وقعت في مكة، لأن إسماعيل ذهب به أبوه إليها رضيعاً، وكون إسماعيل هو الذبيح يؤكده كونه الابن الأكبر وكون الحادثة جرت في مكة المكرمة بحسب ما قاله المفسرون." "القرآن والتوراة أين يتفقان وأين يفترقان؟"، حسن الباش، سلسلة مقارنة الأديان (1)، دار قتيبة، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2000م، ص 184.

ليس له سواه ولم يرزق به إلا بعد طول صبر، امتثل حالاً لذلك الأمر، مقدماً رضا الله تعالى على رضا نفسه، وقام بكل استعداد لتقديم ابنه قرباناً لله إلى أن فداه الله بذبح عظيم، يحكي الله تعالى عنه قائلاً: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1).

كانت شخصية إبراهيم عليه السلام متميزة جداً، يعده الموحدون "الأب الروحي" لهم، لأنه وضع الخطوط العريضة والكبيرة لتوحيد الله، كما سطَّر الحد الفاصل بين الشرك والتوحيد، ووقف صامداً أمام كل الإغراءات والقيود الاجتماعية، جرَّد توحيد ربه من كل الشوائب، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، فخالف في ذلك سائر قومه، حتى إنه تبرأ من أبيه أقرب الناس إليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (2)، ولم يكن عليه السلام يترك فرصة للدعوة إلى الله تعالى إلا ابتهلها، ليصل في الأخير إلى إفحامهم وبيان الحق وإظهاره لهم، حتى وإن كانوا معاندين ومتعنتين في قبوله، متخذاً الوسائل والأساليب الملائمة لإبطال حججهم، معلناً استنكاره لما يعبدون من دون الله، قال عز وجل: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوا

1- سورة الصافات، الآيات 99- 111.

2- سورة الزخرف، الآيات 26- 28.

ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [1].

فلما بَانَ عجزهم ودحضت حجتهم أمام قوة حجة خصمهم إبراهيم عليه السلام أظهروا كفرهم وجحودهم، ودفعوا الحق بالباطل، وعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم لصده عن دعوته ومحاربته: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [2]،﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [3]، ومع ذلك كله وقف عليه السلام صامداً، واستمر في دعوته، ثم أعلن أنه مهاجر بدينه ودعوته إلى ربه لا إلى عرض من أعراض الدنيا ولا إلى جاه أو سلطان: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [4].

فبحظوته لهذه المكانة العالية والمتميزة عند رب العالمين قدَّمه الله تعالى على جميع الأنبياء، ودعاهم إلى الاقتداء به ووصفه بأنه "**أمة قانتا**" و"**إمام**" وقدوة لغيره في الطاعة والخضوع لله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [5]، كما استحق وصف الله عز وجل له بـ"**خليل الرحمن**"، يقول جل جلاله: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [6].

1- سورة الأنبياء، الآيات 55- 69.

2- سورة العنكبوت، الآية 24.

3- سورة الصافات، الآيتان 97- 98.

4- سورة الصافات، الآية 99.

5- سورة النحل، الآيات 120- 123.

6- سورة النساء، الآية 125.

وحرصاً على تبني "أبي الأنبياء" إبراهيم عليه السلام وادعاء الانتساب إليه والسير على طريقه والتقرب منه، تزعم كل ملة وكل طائفة أنه على دينها، فاليهود يزعمون أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً، والنصارى يزعمون أنه كان نصرانياً[1]، والعرب المشركون يزعمون أنه كان على دينهم، وقد سجل القرآن هذا الزعم وأبطله، يقول الله ﷻ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

ويستغل اليهود بخبثهم ومكرهم هذا الزعم ليحققوا عدة أهداف منها:

- إيهام الآخرين بأنهم هم الوحيدين نسل إبراهيم وذريته وهم أحق بالنبوة والرسالة من غيرهم.

- إيهام الآخرين بأنهم على حق، فهُم على دين إبراهيم ما دام إبراهيم في زعمهم يهودياً.

- إيهام الآخرين بأنهم أحق الناس بالأرض المباركة المقدسة التي جعلها الله تعالى لإبراهيم وذريته والتي أخبر الله عنها في القرآن: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

مستهدفين من وراء هذه التمويهات تحقيق غرضين رئيسين: "أولهما تمجيد تاريخهم، وجعل أنفسهم صفوة الأقوام البشرية والشعب المختار الذي اصطفاه الرب من دون بقية الشعوب، ولتحقيق ذلك كان لابد من إرجاع أصلهم إلى أقدس شخصية قديمة، أي شخصية إبراهيم الخليل الذي كان صيته قد عمَّ أرجاء عالمهم في تلك الأزمان.

أما الهدف الثاني فهو جعل فلسطين موطنهم الأصلي مع تأكيد التوراة ذاتها أن فلسطين أرض غربة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وبخاصة أبناء يعقوب (إسرائيل) الذين ولدوا في حران ونشؤوا فيها، هذا إذا فرضنا أن قوم موسى هم بنو إسرائيل، كما سمتهم التوراة، وهكذا فقد ابتدع مدونو التوراة فكرة منح الرب أرض كنعان لإبراهيم وذريته وأن

1- مع أن المسيحيين يدَّعون أن المسيح هو "ابن الله"، فإنهم يصعدون بنسب المسيح إلى إبراهيم عليه السلام، جاء في إنجيل متّى:1- 1:"هذا نسب يسوع المسيح ابن داوود بن إبراهيم"، و الحقيقة أنه ولد من غير أب، كما نص على ذلك القرآن والإنجيل أيضاً، لكن رغبتهم في الانتساب إلى إبراهيم وإثبات أن يسوع هو المسيح المنتظر والملك الذي تنبأت به التوراة جعلهم يتناقضون مع ما ورد في أناجيلهم.

2- سورة آل عمران، الآية 67.

3- سورة الأنبياء، الآية 71.

الرب قد أمرهم بإبادة الكنعانيين هم وأطفالهم وشيوخهم ونساؤهم ليحلوا محلهم. هذا هو الدين الذي جاء به كتبة التوراة ونسبوه إلى إبراهيم وإلى يعقوب وإلى موسى زوراً، وهؤلاء هم اليهود الذين سماهم القرآن الكريم كفاراً لكذبهم على موسى وتحريفهم لتوراتهم"[1]، وهم يستندون في هذه المزاعم الباطلة إلى النسب[2]، فهم يهود، هم ذرية إبراهيم، ولا يمكن أن يكون في زعمهم إلا يهودياً.

والقرآن في معالجته لهذه القضية رفع كل الشبهات التي تدور حول شخصية إبراهيم عليه السلام في كتب اليهود، ونزَّهه عن كل الأضاليل والأباطيل التي نسبوها إليه زوراً وبهتاناً.

كما أنكر على اليهود والنصارى تنازعهم في إبراهيم عليه السلام، وقرر أن إبراهيم ليس يهودياً ولا نصرانياً، ولكنه مسلم، فشرف الانتساب إليه لا يكون برابطة القرابة والنسب، وإنما يكون باتباع منهجه وحسن الاقتداء به، وبيَّن أن أولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتبعوه وآمنوا بما جاء به وسلكوا طريقه، وعلى رأسهم محمد ﷺ، الذي أنكر اليهود نبوته، وأمته المؤمنة برسالته، كما بيَّن أن السند الذي يستندون إليه باطل، فكيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً والتوراة والإنجيل أنزلا بعده بمئات السنين، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3].

والأمر نفسه عابه المسيح على اليهود، حين ادعوا أنهم من نسل إبراهيم، وأوضح لهم أن الانتساب إليه لا يكون بالادعاء فقط، وإنما بالاقتداء والعمل[4].

1- "العرب واليهود في التاريخ"، أحمد سوسة، دار العربي، الطبعة الرابعة، 1975م، المقدمة ص ر- ش.

2- تاريخياً لم يعرف مصطلح "يهود" إلا بعد عهد سليمان عليه السلام، حين انقسمت المملكة إلى قسمين، مملكة يهودا ومملكة إسرائيل أي بعد إبراهيم عليه السلام ألف سنة تقريباً.

ويعزو بعض الباحثين مصطلح "يهود" إلى "يهودا" أحد إخوة يوسف عليه السلام، وحتى إذا سلمنا بهذا الأمر فإن بين يوسف عليه السلام وإبراهيم عليه السلام جيلين كاملين، يعقوب وإسحاق عليهما السلام.

3- سورة آل عمران، الآيات 65- 68.

4- جاء في إنجيل يوحنا 8، 31- 44 أن المسيح قال لليهود الذين آمنوا به: "إذا ثَبَتُّم في كلامي، صرتم في الحقيقة تلاميذي، تعرفون الحق، والحق يحرركم، قالوا له: نحن ذرية إبراهيم، وما كنا يوماً عبيداً لأحد!، فكيف تقول لنا:

وإذا كان الله ﷻ أعطى إبراهيم عليه السلام العهد، وجعله للناس إماماً، فقد بيّن له أن الإمامة والرسالة والخلافة مستمرة في ذريته المؤمنة، أما الظالمون منهم فإنهم لا ينالون عهد الله، ولا يشرّفون بحمل رسالته، وبهذا يكون القرآن قد نفى زعمهم الباطل الذي يدعون فيه أنهم أحق الناس من غيرهم بالرسالة والنبوة، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1].

كما فنّد القرآن مزاعم اليهود بشأن وراثتهم للأرض المباركة وكونها وراثة مستمرة، فأورد حقائق قاطعة، وبيّن أن الوراثة تكون مع شرط الإيمان، قال تعالى:﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ۝ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴾[3].

إن القرآن نبه على الفصل بين إبراهيم الخليل عليه السلام وأبنائه واليهود، وبيّن أن إبراهيم عليه السلام لا صلة له باليهود ولا باليهودية نهائياً، والمتدبر في نصوص العهد القديم يجد أن شخصية "إبراهيم" لا تليق أن تكون قدوة، ولا يتشرف إنسان بالانتساب إليها.

فالتوراة لم تشر إلى رسالة إبراهيم من قريب ولا من بعيد، وشخصية أبرام أو أبراهام، كما تصورها التوراة، بعيدة كل البعد عن إبراهيم الخليل المذكور في القرآن، يقول محمد عزة دروزة: "إن ما ورد في القرآن من قصص إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، وقد تكرر ذلك بأساليب مختلفة في سور كثيرة لم يرد في سفر التكوين المتداول اليوم الذي احتوى إصحاحات كثيرة، فيها ترجمة حياة إبراهيم عليه السلام وأخبارهم وأولاده"[4].

ستصيرون أحراراً؟، فأجابهم يسوع: الحق الحق أقول لكم، من يخطئ كان عبداً للخطيئة، والعبد لا يقيم في البيت إلى الأبد"، ثم قال:" لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم، **فأنتم أولاد أبيكم إبليس، وتريدون أن تتبعوا رغبات أبيكم**".

1- سورة البقرة، الآية 124.

2- سورة الأعراف، الآية 128.

3- سورة الأنبياء، الآيتان 105- 106.

4- "التفسير الحديث"، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، طبعة 1381هـ-1962م، الجزء الثالث، ص 52.

كما عملت التوراة على تشويه هذه الشخصية، فجعلت خروج إبراهيم مهاجراً من أرضه إلى حرَّان ثم فلسطين بناء على أمر إلهي، ليملكه أرض فلسطين، فهو لم يخرج من بلاده مهاجراً إلى الله طالباً هداية ربه، وباحثاً عن مجال آخر، يحتضن دعوته التوحيدية، وإنما خرج لطلب الرزق وطلب الدنيا، ولم تشر التوراة إلى أي صراع عقدي بينه وبين أبيه، بل كان أبوه من الأفراد الذين هاجروا معه حتى حران التي مات بها، على حين يبين القرآن أنه عليه السلام خرج تاركاً أموال الدنيا مؤمناً بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[1]، فكان خروجه على زعم التوراة شأن المهاجرين الذين ينتقلون من مكان إلى آخر للتجارة أو البحث عن مرعى خصب للماشية، ويصدق ادعاءنا ما ترويه التوراة عن الأموال التي اكتسبها أبراهام وكثرتها، حتى جعلته يفترق مع ابن أخيه لوط بسبب خصومة بين رعاة ماشية أبرام ورعاة ماشية لوط:"وكان أبرام غنياً جداً بالماشية والفضة والذهب، وأخذ يرتحل من النقب إلى بيت إيل، وكان أيضاً للوط الذي رافق أبرام غنم وبقر وخيام، فضاقت الأرض بسكناهما معاً، لأن أملاكهما كانت كثيرة، ووقعت خصومة بين رعاة ماشية أبرام ورعاة ماشية لوط، فقال أبرام للوط: لا تكن خصومة بيني وبينك، ولا بين رعاتي ورعاتك، فنحن رجلان أخوان، الأرض كلها بين يديك، فانفصل عني، تذهب إلى الشمال فأذهب إلى اليمين، أو إلى اليمين، فأذهب إلى الشمال"[2].

ولم تذكر التوراة سبباً لاختيار إبراهيم أو لقطع العهد معه، وهذا هو التفضيل الذي يمكن أن يتخذ أساساً للعنصرية والانعزالية عن سائر البشر، وهم يعترفون **بأن هذا الاختيار لم يكن أخلاقياً**، **وليس له علة**، والتوراة تؤكد في أكثر من مكان أن اختيار الإله لبني إسرائيل ليس بسبب أخلاقهم: "**فلا بتقواك ولا باستقامة قلبك جئت لتمتلك أرضهم، ولا لأن أولئك الشعوب أشرار**، طردهم الرب إلهك من أمام وجهك، **بل لأن الرب أراد أن يفي باليمين التي حلفها لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب**، فاعلم ذلك، **وتأكد أن الرب إلهك لم يعطك هذه الأرض الصالحة حتى تمتلكها، لأنك صالح، فأنت شعب عنيد**"[3].

1- سورة الشعراء، الآيات 75 - 82.

2- سفر التكوين 2:13 - 9.

3- سفر التثنية 5:9- 6.

وتشير التوراة أيضاً إلى أن هذه الشخصية شخصية حرب، لم يكن هدفها الدعوة إلى الله، وإنما جمع الأموال، فقد استطاع أبراهام، كما تشير التوراة، مقاتلة خمسة ملوك في آن واحد، وانتصر عليهم لاسترجاع أمواله التي سلبت منه ومن ابن أخيه[1]، وتشير التوراة إلى فكرة مهمة، توضح أن أبراهام عاش بعد الهجرة بين قوم لا ينكرون وجود الله، بل يعرفونه، فعند رجوعه منتصراً على الملوك الخمسة لقيه أحد الملوك المنهزمين **وهو ملكي صادق**، وكان كاهناً، مرحباً به قائلاً: "مبارك أبرام من الله العلي"[2]، وفي هذه العبارة دليل غير أن إبراهيم لم يكن في صراع عقدي ضد هؤلاء، وكل ما تدعيه التوراة بخصوص الجانب العقدي في شخصية أبراهام هو بناؤه لـ"بيت إيل"، وتقديمه لابنه إسحاق قرباناً لـ "إيل".

إضافة إلى تغييب الجانب العقدي لشخصية إبراهيم في التوراة نجد هذه التوراة تصفه بصفات لا تليق بمكانته، أو بالمكانة التي تزعم أنها له، فقد وصفته بعد الإنصاف بين زوجاته[3] ولديه[4] بالكذب، وبادعاء أن زوجته سارة أخته من أبيه[5].

فلا شك في أن القارئ لسيرة هذه الشخصية في التوراة لا يسعده الانتماء إليها، على عكس ما ورد عنه عليه السلام في القرآن، حيث كان مثالاً للرجل الصابر الصادق المجاهد، المتحمل للأذى من قومه، المضحي بآصرة القرابة في سبيل آصرة العقيدة، المنصف بين أبنائه، والمربي لهم على الإيمان بالله والامتثال لأوامره.

إن البون بين الشخصيتين في القرآن والتوراة شاسع، حتى لا يمكننا الحديث عن أي تطابق أو توافق بين الشخصيتين، فإبراهيم القرآني ينافي "إبراهيم" التوراتي في الدين والأخلاق والعقيدة.

1- يمكن الرجوع إلى سفر التكوين 14:1- 17.

2- سفر التكوين 14:19.

3- يمكن الرجوع إلى سفر التكوين 16:4- 6، ورد في التوراة أن إبراهيم كانت له ثلاث زوجات، هن سارة وهاجر وقطورة، إلا أن قطورة لم يرد الحديث عنها إلا عرضاً عند حديث التوراة عن نسلها في سفر التكوين 25:1- 6.

4- يمكن الرجوع إلى سفر التكوين 21:8- 14، مع أن التوراة تولي اهتماماً كبيراً للابن البكر، حتى في البهائم، سفر التثنية 15:19- 23، حيث تورثه أكثر من إخوته، جاء في سفر التثنية21:15- 17: "إذا كان لرجل زوجتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولده له كلتاهما بنين، وكان الابن البكر للمرأة المكروهة، فيوم يورث بنيه ما يملكه لا يحل له أن يعطي حق البكورية لابن المحبوبة من دون ابن المكروهة البكر، بل يقر بابن المكروهة بكراً، فيعطيه سهمين من جميع ما يملكه، لأنه هو أول بنيه، وله حق البكورية"، نجد اليهود يتحايلون ويحرمون بعض الأبناء هذه البكورية مع أنهم يستحقونها، وذلك بافتراء الأكاذيب، فمع أن إسماعيل عليه السلام هو الابن البكر لإبراهيم عليه السلام يحرمونه البركة بدعوى أنه ابن جارية، وهو الأمر الذي لم يشر القرآن إليه، بل لم يشر القرآن أصلاً إلى أن إبراهيم عليه السلام كانت له أكثر من زوجة، ما يجعل ادعاءهم محل شك، وحرموا عيسو بن إسحاق مع أنه بكره، ومنعوه حقه في البكورية وأعطوها يعقوب، لما تحايلت أم يعقوب واسمها "رفقة" على إسحاق عليه السلام لما شاخ، وفقد بصره، وأدخلت يعقوب عليه عوض عيسو، لينال البركة مكانه، سفر التكوين27:1- 40، وغرض اليهود من هذا كله إظهار أنهم النسل الوحيد الذي يستحق البركة، وإن لم تتوافر فيهم شروطها.

5- يمكن الرجوع إلى سفر التكوين 20:2- 12.

المبحث الثاني

نقض مزاعم اليهود بشأن تفضيلهم على العالمين

يظن اليهود أنهم جنس مفضل على سائر الأجناس، وأنهم من عنصر ممتاز، يختلف تماماً عن كل عناصر بني البشر الذين يطلقون عليهم اسم "جوييم"، ومعناه البهائم، ويدعي اليهود أن أرواحهم من روح الله وعنصرهم من عنصره، ومن هنا كانوا أبناءه الأطهار الذين اصطفاهم، واختارهم فوق سائر البشر، فهم شعب الله المختار، بينما غيرهم من الجوييم أصحاب أرواح حيوانية أو شيطانية، ولكن الله خلقهم على صورة الإنسان، لكي يتمكنوا من خدمة اليهود.

بل قد يصل ظنهم وتصورهم لذاتهم إلى أبعد من ذلك، تقول جولدا مائير، وكانت رئيسة لوزراء إسرائيل الوحيدة إبان حرب أكتوبر، في كتابها "حياتي": "**إنه ليس صحيحاً أن الله هو الذي اختار اليهود، ولكن اليهود هم الذين اختاروا الله**، فلقد كان الناس يعبدون الأصنام، ولكن اليهود عبدوا الإله الواحد، فهم الذين اختاروا الإله الواحد، وهم الذين اختاروا التوحيد، ولذلك فليس الله هو الذي يستحق الشكر، لأنه اختار اليهود، ولكن اليهود هم الذين يستحقون الشكر من الله، لأنهم هم الذين فضلوه على بقية الحيوانات والأوثان"[1].

وقد رتب اليهود على هذه العقيدة الباطلة مجموعة من النتائج التي هي أشد منها بطلاناً، تنظم علاقتهم بالآخر، وتتأسس عليها قوانينهم ومعاملاتهم في الأمور السياسية والاجتماعية ومن ذلك:

- التعامل بالربا محرم بينهم، وجائز مع غيرهم.
- جواز زواج اليهودية بغير اليهودي لمصلحة اليهود، وتحريم زواج اليهودي من غير اليهودية، حتى لا تميل قلبه إلى إلهها.
- إباحة الزنا بالمرأة غير اليهودية وتحريمه مع اليهودية.
- تحريم قتل اليهود بعضهم، وإباحة قتل غير اليهودي، بل توجب التوراة حتى غزو الشعوب الأخرى وقتلها وسلب أموالها.

1- "الميزان في مقارنة الأديان، حقائق ووثائق" محمد عزت الطهطاوي، دار القلم دمشق- الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ-1993م، ص 31.

ويستدل اليهود على هذه العقيدة الباطلة بمجموعة من الأدلة من توراتهم المحرفة التي لا يكاد ركن من أركانها يخلو من تسخير هذه العقيدة، بدءاً بكتب موسى وحتى نهاية أسفار العهد القديم، ومن تلمودهم الذي وضعته أيدي أحبارهم وحاخاماتهم، ومن هذه الأدلة التي تريد تأكيد أسطورة شعب الله المختار أو الاستعلاء الديني:

- "...فأنتم شعب مقدس للرب إلهكم الذي اختاركم له من بين جميع الشعوب التي على وجه الأرض، لا لأنكم أكثر من جميع الشعوب فأنتم أقلها، بل لمحبته ومحافظته على اليمين التي حلفها لآبائكم.."[1].

- "...لكنه تعلق قلبه بآبائك، فأحبهم واختار ذريتهم من بعدهم، وأنتم هذه الذرية التي اختارها من بين الشعوب كما ترون اليوم"[2].

- "أنتم أبناء الرب إلهكم، فلا تخدشوا أجسادكم حزناً على ميت، ولا تجرحوا ما بين عيونكم، لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم الذي اختاركم له من بين جميع الشعوب التي على وجه الأرض"[3].

- "أنت يا رب أب لنا، فلا إبراهيم ولا يعقوب يعرفاننا، أنت يا رب أب لنا وفادينا، منذ الأزل اسمك."[4].

وجاء في التلمود:

- "كما أن العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء، فإنه لا يمكن أن يعيش من دون إسرائيل"[5].

- "إن اليهود هم وحدهم البشر، أما الشعوب الأخرى فليست سوى أنواع مختلفة من الحيوانات"[6].

1- سفر تثنية 7: 6- 8.

2- سفر تثنية 10: 15.

3- سفر تثنية 14: 1- 2.

4- سفر إشعيا 63: 16.

5- حسن ظاظا، "أبحاث في الفكر اليهودي"، ص 101، بوساطة كتاب "العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها" د. أحمد بن عبد الله الزغيبي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1418هـ-1998م، ص 71.

6- "همجية التعاليم الصهيونية"، بولس مسعد، ص 63، بوساطة كتاب "العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها"، أحمد بن عبد الله الزغيبي، مرجع سابق، ص 71.

- "إن الإسرائيلي عظيم عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب أمي إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية"[1].

- "إذا وقع أحد الوثنيين في حفرة يلزمك أن تسدها بحجر"[2].

- "اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها، لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين"[3].

ومن أقوال حاخاماتهم وزعمائهم في هذا الصدد :

قال الحاخام أباربانيل:"الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير"[4].

وقال الرابي مناحم:"أيها اليهود إنكم من بني البشر، لأن أرواحكم مصدرها روح الله، وأما باقي الأمم فليست كذلك، لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة"[5].

وقال الزعيم الصهيوني آحاد هاعام:"إن اليهودي هو الرجل المتفوق، وهو غاية في ذاته، وإن العالم خلق من أجله"[6].

ويفسر لنا ما أصاب اليهود من الغربة والتشرد في مسيرتهم التاريخية من اضطهاد وسبي، إضافة إلى نفسيتهم المعقدة الخبيثة تجاه الآخر، ذلك السر الذي جعلهم يظنون أنهم أفضل المخلوقات إطلاقاً، وأنهم شعب الله المختار، فقد جعلهم هذا الأمر فئة منغلقة، تستغل أهم قوة لديها، وهي الدين، لتبحث عن تأسيس مجتمع، يحكم نفسه بنفسه اقتداء بالشعوب الأخرى المجاورة وللتخلص من قبضة الأقوياء والجبارين، خصوصاً أن هذه الشعوب العملاقة شيدت حضارات ضخمة، تمثلت في التطور الهائل الذي عرفته مختلف جوانب الحياة في مجتمعاتها في الزراعة والعمران والقوانين وتنظيم الجيوش الجبارة كالبابليين والآشوريين والمصريين والكنعانيين[7].

1- "الكنز المرصود في قواعد التلمود"، يوسف نصر الله، مرجع سابق، ص 73.
2- المرجع نفسه، ص 91.
3- المرجع نفسه، ص 90.
4- المرجع نفسه، ص 75.
5- المرجع نفسه، ص 75.
6- "العنصرية والفصل العنصري في جنوب إفريقيا وإسرائيل"، إحسان الكيالي، ص 23، بوساطة كتاب "العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها"، أحمد بن عبد الله الزغيبي، مرجع سابق، ص 71.
7- يمكن الرجوع إلى "ولادة إله" جون بوتيرو، ترجمة جهاد الهواش وعبد العالي عباس، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، سورية، دمشق، الطبعة الأولى، 1999م، المقدمة ص6، فقد ذكر المؤلف الحجم الحقيقي لشعب إسرائيل مقارنة بحجم الحضارات الكبرى المجاورة.

"هذه العقيدة نشأت عند اليهود رد فعل على ما عانوه خلال مراحل الأسر والتشرد التي خضعوا لها، ذلك أن رجال الدين عندهم خافوا من ذوبان الشعب اليهودي في المجتمعات الجديدة، وبذلك يضيع سلطان رجال الدين، فاخترعوا هذه الفكرة في محاولة لتجميع الشعب اليهودي وعدم اختلاطه بالآخرين، كما لم تطق الشعوب التي نزلوا ضيوفاً عليها أخلاقهم الذميمة، فاحتقرتهم، ونظرت إليهم كأنهم من أجناس أقل، ومن هنا نشأت عندهم عقيدة سولت لهم أنهم أرقى من مستوى بشر، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، **وهكذا تحولت مركبات النقص وعقد الضعف عند اليهود إلى ألوان من جنون العظمة**"[1].

وعلى عكس ما تدعيه التوراة من كثرة العدد[2] عند تفاخرها بقبائل بني إسرائيل يؤكد القرآن في عدة آيات أن الشعب اليهودي لم يكن إلا شرذمة قليلة اتبعت موسى على خوف من فرعون، قال تعالى:

- ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ [3]،

- وقـــال تعـــالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [4].

وقد أذاق فرعون هذه الفئة ألوان العذاب والهوان، وكاد يسحقها باستعباده لها بكل الوسائل والطرق، خوفاً من رؤيا رآها، مضمونها أن زوال ملكه سيكون على يد رجل من بني إسرائيل، فأمَرَ بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك منهم، واستحياء بناتهم لاستخدامهن في السخرة، وأمر باستعمالهن في أشق الأعمال وأرذلها، فخلصهم الله ﷻ من فرعون وبطشه، وأنقذهم من سوء العذاب، قال تعالى:

1- "العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية"، سعد الدين السيد صالح، مكتبة الصحابة - جدة، مكتبة التابعين – القاهرة، 1983م، ص 363.

2- يرد تعداد قبائل بني إسرائيل وإحصاؤها في الإصحاح الأول من سفر العدد، وقد بين ابن حزم خطأ هذه الأعداد المبالغ فيها فقال: "فليتأمل كل ذي تمييز صحيح من الخاصة والعامة هذا الكذب الفاحش الذي لا خفاء به، والمحال الممتنع، والجهل المفرط الموجب كل ذلك ضرورة أنها كتب محرفة مبدلة من تحريف فاسق سخر بهم، وأنها لا يمكن البتة أن تكون من عند الله، ولا من عند نبي، ولا من عمل صادق اللهجة". "الفصل في الملل والأهواء والنحل" مرجع سابق، الجزء الأول، ص 269.

3- سورة الشعراء، الآيات 53 – 55.

4- سورة يونس، الآية 83.

- ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (1).

- وقال كذلك: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (2).

- ومثله قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (3).

فبعد العذاب والذل والقهر بذبح الأبناء واستخدام النساء أورثهم الله تعالى مشارق الأرض ومغاربها ونصرهم ﷻ بالتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ (4)، وقال ﷻ أيضاً: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (5).

فكان مجيء موسى عليه السلام لدى اليهود بمنزلة المنقذ والمخلص، فعرف معه اليهود تغييراً جذرياً في مجرى حياتهم العقائدي والاجتماعي والاقتصادي، وبدأت مرحلة التحول من الاستعباد إلى العبادة، ومن الأفول إلى الظهور، ومن الضعف إلى القوة، ولعل الفترة التي عاشها اليهود بعده مع داوود وسليمان عليهما السلام تجسد هذه الحقبة من تاريخهم الذهبي.

1- سورة البقرة، الآية 49.

2- سورة الأعراف، الآية 141.

3- سورة إبراهيم، الآية 6.

4- سورة الأعراف، الآية 137.

5- سورة الشعراء، الآيات 57- 59.

وقد مدح القرآن اليهود، ووصفهم بالتفضيل على العالمين في عدة آيات، قال تعالى:

- ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1].

- وقال: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2].

- ومثله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [3].

- وقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [4].

- وقال: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ [5].

والحقيقة أن إشارة القرآن إلى ذلك التفضيل وعدم إنكاره ليس على إطلاقه، ولا بمعنى تفضيل جنس اليهود على باقي أجناس البشر.

فما معنى كلمة "الفضل" كما جاءت في سياق الآيات القرآنية؟، وهل التفضيل الذي ذكره القرآن هو نفسه ما يدعيه بنو إسرائيل؟

باستقراء كلمة "الفضل" في مجموع القرآن فإنها تفيد عند ورودها في السياق نفسه مع "أهل الكتاب" معنى واحداً هو معنى الرسالة والنبوة، فالفضل المقصود والمراد فضل النبوة، وليس فضل الجنس أو العنصر، وهو الفضل الذي رفضت اليهود انتقاله إلى غيرهم من البشر، وزاد حقدهم وحسدهم على العرب، قال تعالى:

- ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا

1- سورة البقرة، الآية 47.

2- سورة البقرة، الآية 122.

3- سورة المائدة، الآية 20.

4- سورة الجاثية، الآية 16.

5- سورة الدخان، الآيتان 32- 33.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [1]، فالفضل هو ما أنزل الله على نبيه، وهو ما لم ترض عنه اليهود وكفرت به، وقال تعالى:

- ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [2]، فالخير والفضل والرحمة التي لم تود اليهود أن تنزل على العرب في شخص محمد هو النبوة والرسالة، فبعدما ميز الله بني إسرائيل بالنبوة، وفضلهم بها على غيرهم، انتزعها منهم، وأعطاها محمداً وأمته، بالشرط نفسه وهو الالتزام بدين الله وعدم تجاوز حدوده.

- قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [3]، والفضل في هذه الآية هو ما أوتي محمد، وهو ما أوتي موسى نفسه يقول الحق ﷻ: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [4]

- وقال: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ [5]، ويظهر في هذه الآية بكل وضوح أن الفضل هو النبوة.

1- سورة البقرة، الآيتان 89- 90.

2- سورة البقرة، الآية 105.

3- سورة آل عمران، الآيات 72- 74.

4- سورة الأحقاف، الآية 12.

5- سورة النساء، الآية 54.

- وكذلك قال: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [1]، فليس لأهل الكتاب، وإن كثرت فيهم النبوات القدرة على حرمان غيرهم هذا الفضل، لأنه بيد الله يؤتيه من يشاء.

ورجوعاً إلى كتب التفسير نجدها لا تختلف في تفسير معنى "التفضيل على العالمين" الذي صرح به القرآن على أنه تفضيل على عالمي زمانهم، فقد جاء في تفسير ابن كثير "يُذكرهم تعالى بسالف نعمه إلى آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾، وقال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين"﴾ [2]، وقال البيضاوي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿على العالمين﴾ أي عالمي زمانهم، ويريد به تفضيل آبائهم الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام وبعده، قبل أن يضروا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح، وجعلهم أنبياء وملوكاً مقسطين" [3].

فالتفضيل كما جاء في القرآن كان خاصاً بزمن معين وبأمر معين، فضلهم الله عز وجل على عالمي زمانهم، وذلك بتخصيصهم بالنبوة، لأنهم آمنوا حيناً ببعض الأنبياء، وعرفوا نور التوحيد في الوقت الذي كانت فيه معظم الشعوب معرضة عن عبادة الله، فلم يكن تفضيلهم إذاً بالعرق أو اللون أو الجنس، وإنما كان تكليفاً لليهود واختباراً وابتلاء لهم، أيشكرون أم يكفرون، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ [4]، وفي الوقت الذي أضاعوا فيه الأمانة الموكولة إليهم، وضيّعوا الميثاق الذي عقدوه مع رب العالمين، وانحرفوا عن النهج الذي رسمه الأنبياء لهم، وحرفوا كتبهم وكذبوا أنبياءهم، بل وقتلوهم، استحقوا غضب الله عز وجل ولعنة أنبيائه الكرام، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ

1- سورة الحديد، الآية 29.

2- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 62.

3- "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ- 1988م، الجزء الأول، ص60.

4- سورة الدخان، الآيتان 32- 33.

مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (1).

ويرد القرآن رداً منطقياً على ادعائهم بأنهم أولياء الله وأحباؤه، فيقول: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (2)، ويقول ﷻ:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (3).

فاليهود لا يمكن أن يكونوا الشعب الذي اختاره الله، لأن أعمالهم بكل بساطة لا تتفق مع ذلك الاختيار، وعلى هذا سلب منهم ذلك التفضيل ونزع منهم ذلك الفضل الذي هو النبوة، ليعطى لمن هو أحق منهم أمة محمدﷺ، قال تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (4)، إذ ليس على أساس الجنس والعرق بل بشرط المحافظة على حسن الصلة بالله والقيام بحقوق الله ﷻ على أحسن وجه، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (5)، فالنبوة فضل من الله عز وجل يؤتيه من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (6).

1- سورة المائدة، الآيات 78- 80.

2- سورة المائدة، الآيات18

3- سورة الجمعة، الآيتان 6- 7.

4- سورة آل عمران، الآية 110.

5- سورة الحجرات، الآية 13.

6- سورة الحديد، الآية 29.

وإذا كان اليهود يصفون غيرهم من البشر بأنهم حيوانات، خلقت لخدمتهم، فالقرآن يجعل وصف الحيوانية منطبقاً عليهم، فمن يعيش لمأكله ومشربه وشهواته الدنيوية، ويسعى لتحقيق مصالحه الخاصة، من دون أن يتذكر أو يؤدي ما عليه من حق الله عز وجل فهو حيوان حقيقة، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1]، كما جعلهم في مرتبة القردة والخنازير تحقيراً لأفعالهم الدنيئة ولتلاعبهم بالحق، قال عز وجل: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [2]، كما شبههم في انحرافهم عن اتباع الحق الذي جاء به موسى عليه السلام وتملصهم من أداء الواجب مع نبيهم وسوء معاملتهم له بالتشبيه الملائم لهم، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [3].

1- سورة الجمعة، الآية 5.

2- سورة المائدة، الآية 60.

3- سورة الأعراف، الآيات 175- 177.

الفصل الثالث

تصحيـــح قضايا العقيدة

المبحث الأول

تصحيح عقيدة التوحيد

إذا كان القرآن قد نزل لترسيخ معنى "لا إله إلا الله" في العقيدة والشريعة والحياة، ويجعلها منهاج حياة الإنسان الصالح، فإن العقيدة اليهودية تفتقد هذا المعنى الرباني السليم، وذلك لما شابها من الوثنيات، فحادت عن الحق، وغلبت الجانب الدنيوي على الجانب الأخروي، ونظرت إلى كل شيء نظرة مادية محضة، لتلبي الأهواء الضالة والطموحات الجارفة والرغبة في التحريف والتزوير، ولعل نشأة الديانة اليهودية في أحضان العقائد الوثنية والأساطير القديمة كان له أثر واضح وجلي، فبصمات الديانة الفرعونية التي تميزت بتقديس الحيوانات أثرت على نحو كبير في أتباع موسى، وحالت دون ترسيخ معنى التوحيد لديهم على النحو الصحيح، وجعلتهم يتصورون ضرورة تجسيد الإله، خصوصاً لما رأوا في أثناء مرحلة التيه بعد الخروج مع موسى من مصر أقواماً أخرى تعبد الأصنام، حينها طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً كسائر الأمم، فعقولهم لم تقو على فهم حقيقة الإله إلهاً مجرداً عن التجسيد والتحديد والرؤية، قال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (1)، وموقف موسى هنا كان صريحاً في كون هؤلاء على باطل، لكن لم يفهم بنو إسرائيل ذلك، وانتظروا أول فرصة يغيب فيها موسى عليه السلام، ليستعيدوا فيها ذاكرتهم الموروثة، ويجسدوا الإله المعبود في صورة عجل.

ومع أن موسى عليه السلام كان هدفه أن يسمو بقومه إلى أرقى مستويات النضج، ويخرجهم من براثن الذل والكفر بدعوتهم إلى توحيد الله، إلا أن جهوده العظيمة التي كان يبذلها لتحقيق ذلك باء أكثرها بالإخفاق، وهذا يؤكد أن الذهنية الإسرائيلية المتشبعة بالوثنية والمتأثرة بالأساطير والخرافات لم تستطع الخروج من دائرة الوهم والخبط

1- سورة الأعراف، الآيات: 138- 140.

العشوائي إلى الحقيقة التي حاول موسى عليه السلام أن يبينها بوساطة الإرشاد والهدي الإلهي الموحى إليه[1].

ولعل هذا الصراع بين التوحيد والوثنية، بين موسى الذي يريد لقومه التوحيد وقوم موسى الذين يريدون أن تكون لهم آلهتهم الخاصة بهم المجسمة والمشخصة، يدفعنا إلى القول إن معنى التوحيد غريب عن هذه الشرذمة التي خرجت مع موسى، ويجعلنا نشك في أن هؤلاء القوم كان لهم سابق معرفة بالتوحيد، خصوصاً أن بني إسرائيل لم يعرفوا مصطلح "النبي" إلا بعد احتكاكهم بالعرب، فقد كانوا يطلقون على موسى عليه السلام لقب "رجل الله" و"عبد الرب"، يقول العقاد :"وقد عرفت قبائل العبريين نبوءات السحر والكهانة والتنجيم، كما عرفتها الشعوب البدائية، وابتكرت منها ما ابتكرت على سنة الشعوب كافة، واقتبست منها ما اقتبست بعد اتصالها بجيرانها في المقام من أهل البادية أو أهل الحاضرة، ولكنها على خلاف الشائع بين المقلدين من كتّاب الغربيين قد تعلمت النبوة الإلهية من شعوب العرب، ولم تكن لهذه الكلمة لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في أرض مدين، فكانوا يسمون النبي الرائي أو الناظر أو رجل الله، ولم يطلقوا عليه اسم النبي، إلا بعد معرفتهم بأربعة أنبياء العرب المذكورين في التوراة، وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام وشعيب[2]"[3]، فمصطلح "النبي" إذاً مصطلح مستمد من الحقل اللغوي العربي، أي إن هذه الكلمة دخيلة على الفكر العقائدي اليهودي، فكيف لقوم لا يعرفون النبوة أن يكونوا على علم بالتوحيد؟!.

وهذا ما يجعلنا نشك أيضاً، بغض النظر عن علاقة القرابة، في العلاقة العقائدية بينهم وبين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وأبنائه، خصوصاً أن القرآن نفى هذه العلاقة في

1- نجد في التوراة نصوصاً كثيرة تظهر الجهل اليهودي بالإله، حيث ينظرون إليه إنساناً عادياً محدود القدرة، فالله في ظنهم يعلم بعض الأشياء لا كلها، ويخطئ ويندم، ومن نماذج ذلك ما جاء في سفر الخروج:"إن الله طلب من بني إسرائيل أن يرشدوه إلى بيوتهم وبيوت المصريين، حتى ينزل ضرباته على المصريين دونهم، ولذلك طلب منهم أن يميزوا بيوتهم بدماء الكباش المضحاة بأن يحملوا الدم على القائمتين والعتبة العليا في البيوت"، سفر الخروج 12: 7.

2- شعيب وأيوب من أنبياء الله تعالى المذكورين في القرآن في عدة سور كسورة الأعراف، هود، الشعراء، ص،
أما ملكي صادق فقد ذكر في سفر التكوين، وهو من الأنبياء الذين التقى بهم إبراهيم عليه السلام، تقول عنه التوراة: "وأخرج ملكي صادق، ملك شالوم، خبزاً وخمراً، وكان كاهناً لله العلي القدير، فبارك أبرام بقوله: مبارك أبرام من الله العلي خالق السماوات والأرض"، سفر التكوين 17: 18- 19.
أما بلعام فقد ذكر في سفر العدد من الإصحاح 22 إلى الإصحاح 24، طلب منه ملك موآب أن يلعن شعب بني إسرائيل، وقال له:"فأنا أعلم أن من تباركه يكون مباركاً ومن تلعنه يكون ملعوناً"، لكنه رفض، لأن الله قال له:"لا تذهب معهم، ولا تلعن الشعب فهو مبارك".

3- "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، مرجع سابق، ص 63.

آيات كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (1).

ولما كان هدف القرآن تصحيح العقائد المنحرفة عموماً، وعقيدة أهل الكتاب خصوصاً، كان مألوفاً أن يناقش العقيدة اليهودية من جميع وجوهها المنحرفة، ويكشف عيوبها ونواقصها، ويقدم المعنى الصحيح للتوحيد الذي يتوافق ولا شك مع ما جاء به موسى عليه السلام، فكلاهما من مصدر إلهي واحد، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2).

ولهذا ركز القرآن في موضوع عقيدة التوحيد على إظهار انحراف اليهود في:

1- قولهم بتجسيد الذات الإلهية:

يبين القرآن أن أول خطوة في انحراف بني إسرائيل عن الخط الصحيح للتوحيد كانت مباشرة بعد مجاوزة البحر مع موسى عليه السلام، فحين رأى أتباع موسى قوماً يعكفون على أصنام لهم، طلبوا من موسى الأمر نفسه راغبين في وضع صورة مجسدة للإله الذي يعبدونه: ﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (3)، فلا فرق عندهم بين الصنم والإله الذي يدعو إليه موسى عليه السلام، فمقابل شكر الله تعالى على أكبر نعمة أنعمها الله تعالى عليهم، وهي نجاتهم من فرعون وإغراقه أمام أعينهم، كفروا به تعالى، وهذا يدل على عدم استيعابهم لرسالة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام، مع أن

1- سورة البقرة، الآية 140.

2- سورة هود، الآية 17.

3- سورة الأعراف، الآيات 138- 140.

دعوته منذ بدايتها نصت على عبادة الله الواحد الأحد، وبيّنت حقيقة توحيد الله تعالى، وكان ذلك في محاورته عليه السلام لفرعون، حين أرسله الله تعالى إليه لتخليص بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [2]، ومع أن الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام كانت باهرة، أنكر فرعون الإيمان بها، واتهمه بالسحر استكباراً وجحوداً، ولم يختلف موقف بني إسرائيل الذين ادعوا الإيمان بموسى عن موقف فرعون الملحد، فمع مشاهدتهم للآيات البينات التي جاء بها موسى عليه السلام لم يتوان بنو إسرائيل في اغتنام فرصة غيابه، وعبدوا العجل الذهبي، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [4].

1- سورة الشعراء، الآيات 23- 29.
2- سورة طه، الآيات 47- 56.
3- سورة البقرة، الآية 92.
4- سورة النساء، الآية 153.

وكما تحكي التوراة[1] أقاموا له الحفلات، وقربوا له القرابين، وتذكروا أيام الرقص واللهو أمام الآلهة المصرية التي قضوا سنين في عبادتها، يقول سبينوزا: "ومع أن الله كشف نفسه لموسى، فإن الإسرائيليين لم يعلموا عنه شيئاً يذكر، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما عظموا العجل، وعبدوه بعد بضعة أيام، ظانين أن العجل هو هذه الآلهة التي أخرجتهم من مصر، إن من الواجب قطعاً ألا نظن أن أناساً أجلافاً أنهكهم شقاء العبودية، قد عرفوا الله معرفة صحيحة"[2].

إن الفكر الوثني الذي سيطر على بني إسرائيل شلَّ عقولهم فلم يفهموا أن رسالة موسى هي إزالة هذا الفكر المترسخ من عقولهم نتيجة عيشهم عدة قرون مع المصريين الذين مثل عندهم العجل "أبيس" إله القوة والخصوبة، وإن كان بعض المهتمين[3] بدراسة علم المصريات يقولون إن هذه العبادة عرفت في مصر في عهد متأخر، فانتشارها في بلاد ما بين النهرين وبلاد كنعان، حيث انتشرت عبادة العجل "بعل"، ليس حديثاً، بل هي من العبادات التي عرفتها الأمم القديمة من بابليين وكنعانيين، ونظرا إلى احتكاك بني إسرائيل بكل هؤلاء **فقد تشربوا عبادة العجل**، كما يحكي عنهم القرآن في إشارة معجزة إلى أن عبادة الأوثان والأصنام عند اليهود قضية راسخة في وجدانهم وضمائرهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4]، ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي قدَّسوا فيها "العجل" بل عبدوه مرات كثيرة أيام الملك يربعام[5] وزمن الملك هوشع[6] ويتحدث سفر هوشع عن عبادة

1- جاء في سفر الخروج 32: 5- 6: "...فلما رأى هارون ذلك بنى أمام الصنم مذبحاً، ونادى وقال: "غداً عيد الرب"، فبكروا في الصباح وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة، وجلسوا يأكلون ويشربون، ثم قاموا يمرحون".

2- رسالة في اللاهوت والسياسة،"سبينوزا، ترجمة وتقديم: د. حسن حنفي، مراجعة: د. فؤاد زكريا، دار الطليعة بيروت، الطبعة الرابعة، أبريل، 1997، ص 164.

3- Dictionnaire Biblique Universel, L.MONLOUBOU, F.M. DU BUIT, o.p; Desclée Paris 1984 page: 756- 757.

4- سورة البقرة، الآية 93.

5- "وبنى يربعام شكيم في جبل أفرايم، وبعد أن فكر في الأمر صنع عجلين من الذهب، وقال لشعبه: لا حاجة لكم بعد الآن إلى الصعود إلى أورشليم، هذه آلهتكم التي أخرجتكم من مصر"، سفر الملوك الأول 12: 25- 29.

6- "وتركوا وصايا الرب إلههم، وصنعوا عجلين من المعدن المسبوك وتمثالاً لأشيرة، وسجدوا لنجوم السماء، وعبدوا البعل"، سفر الملوك الثاني17: 16.

السامرة للعجل[1]، وليس الأمر غريباً على شعب كهذا، لا يكتفي بعبادة الأوثان، بل ينسبون ذلك أيضاً إلى أنبيائهم، فموسى صنع الحية النحاسية التي عبدوها[2]، وسليمان[3] عبد الأوثان في آخر حياته،

وقد أشار قاموس التوراة إلى أسباب اختيار بني إسرائيل لعبادة العجل تحديداً فقال:"لقد خرج بنو إسرائيل من مصر، حيث اعتادوا رؤية المصريين يعبدون العجل، لذلك سعى هارون بصناعته للعجل إلى تلبية رغبتهم الدفينة المشبعة بالوثنية المصرية التي تجسد الإله في العجل أبيس، فكان هذا التمثيل لله بالعجل تذكيراً للعادات الإسرائيلية القديمة، إضافة إلى أن إله الكنعانيين هو إله الريح والرعد والعواصف، ويهوه إله بني إسرائيل كما تذكر التوراة كان يتجلى لموسى بين عمودي نار وسحاب[4]، فظنوا أن إلههم هو الإله بعل إله الريح والرعد والعواصف لدى الكنعانيين"[5].

ويدعي قاموس التوراة أن صانع العجل هو هارون، مسايراً بذلك التوراة التي نسبت هذا الجرم العقائدي إلى نبي من أنبياء الله، وحاشاه أن يفعل ذلك، لكنه يشير إلى أن هارون كان مضطراً إلى هذا الفعل، لأنه خشي أن يعود بنو إسرائيل إلى مصر، إن لم يستجب لطلبهم، خاصة أنه يعلم أنهم منحرفون[6]، و يأتي النص القرآني ليكشف عن الفاعل الحقيقي لهذه الجريمة وهو "السامري"، فيبرئ هارون عليه السلام، ويبين القرآن أن هارون عليه السلام لم يسكت لهؤلاء الرعاع، بل نهاهم عن هذا الفعل الشنيع، فلم يمتثلوا له، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ

1- "زنخ عجلك أيتها السامرة، وحمي غضبي على بنيك، فإلى متى لا يقدرون أن يطهروا؟، صانع من إسرائيل صنع عجلك، أيتها السامرة، فكيف يكون إلهاً؟"، سفر هوشع 8: 5- 6.

2- "وأزال معابد الأوثان على المرتفعات، وحطم الأنصاب، وقطع تماثيل أشيرة، وسحق حية النحاس التي صنعها موسى، لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يحرقون البخور لها، وسموها نحشتان"، سفر الملوك الثاني 18: 4.

3- "وفي زمن شيخوخته لم يكن قلبه مخلصاً للرب إلهه، كما كان قلب أبيه داوود، وتبع سليمان عشتروت إلهة الصيدونيين وملكوم إله بني عمون، وفعل الشر أمام عيني الرب"، سفر الملوك الأول 11: 4- 5.

4- "وحدث في اليوم الثالث عند الصباح أن كانت رعود وبروق وسحاب كثيف على جبل سيناء، وصوت بوق شديد جداً، فارتعد جميع الذين في المحلة، فأخرجهم موسى لملاقاة الله، فوقفوا عند أسفل الجبل، والجبل يلفه دخان، لأن الرب نزل عليه بالنار، فتصاعد دخانه كدخان الأتون، واهتز الجبل اهتزازاً شديداً، وكان صوت البوق يرتفع جداً، وموسى والله يجيبه بقصف الرعد"، سفر الخروج 19:16- 20.

5-Dictionnaire de la Bible réalisé par F. VIGOUROUX avec le concours d'un grand nombre de collaborateur fascicule XXXIX et dernier. TUTEUR – ZUZIM, Paris LETOUYEY ET Ané Editeur 1912 page : 2387- 2388

6- Ibid page : 2386

فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ
غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا
مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ
فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ
فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ
يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا
وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ
لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى
ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [1].

ويؤكد الإمام القرافي ما جاء به القرآن من نص توراتهم، فيقول:" قالت اليهود :"إن الذي أمرنا بعبادة العجل واتخاذه هو هارون، عليه السلام"، مع أن موسى، عليه السلام، استخلفه للإصلاح، فأمر بالكفر الصراح، وكذبهم دانيال في نبوته، فقال: إن الذي صنع العجل منحا السامري، وكان آباؤه يعبدون البقر، فاستتابه موسى، عليه السلام، ونفاه إلى الشام، ولذلك كان الشام أكثر سمرة من غيره، وهذا موافق للقرآن"[2].

ويمضي القرآن في إثبات انحراف اليهود عن العقيدة الصحيحة ورفضهم من ثم للهدي الذي جاء به محمد ﷺ، فيذكرهم بما صدر من الآباء الأوائل الذين اختارهم

1- سورة طه، الآيات 83- 98.

2- "الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على اليهود والنصارى"، للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، دراسة وتحقيق: مجدي محمد الشهاوي، مكتبة القرآن- القاهرة، ص 185- 186.

موسى لميقات ربه، وعدّهم مؤمنين برسالته، فأظهروا إنكارهم وجحودهم بسبب ماديتهم وأخطؤوا في نظرتهم إلى الله تعالى، وأساؤوا أدبهم معه ﷻ، فطلبوا رؤيته تعالى، وهو سبحانه الذي لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، قال تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ (1)، ومع أن الذين طلبوا من موسى عليه السلام رؤية الله، كانوا على علم بالعقاب الذي أنزله الله تعالى على الذين عبدوا العجل، ورأوا الغضب الشديد الذي صدر من موسى عليه السلام، لم يستفيدوا من ذلك، فالفهم الوثني للإله لم يفارقهم، وإنما بقي يساور عقولهم، وما إن صعدوا الجبل حتى أعلنوا كفرهم واشترطوا لإيمانهم رؤية الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (2)، والحقيقة أن " سؤال بني إسرائيل لموسى إنما هو سؤال تعجيزي، لأن إيمانهم بالله ﷻ قد حصل خلال البراهين الواقعية والفطرية، ولكنهم رفضوا الانقياد لموسى، واشترطوا رؤية الله سبحانه جهرة، لينقادوا إلى أمره، وهم عالمون أن ذلك مستحيل"(3).

إن الحس المادي الغليظ هو طريقهم إلى المعرفة، فإن كان الله في نظرهم لا يجوز تجسيده فلابد إذاً أن يروه، وإلا لا يؤمنون به، مع العلم أن التوراة تؤكد عدم إمكان رؤية الله، وأن من رآه مصيره الموت، والوصايا العشر صريحة في عدم تجسيد الإله، وصريحة في عدم إمكان رؤيته، جاء في سفر الخروج:"أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من دار العبودية، لا يكن لك آلهة سواي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة شيء مما في السماء من فوق، ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في المياه من تحت الأرض، لا تسجد لها، ولا تعبدها، لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أعاقب ذنوب الآباء في الأبناء"(4).

1- سورة الأعراف، الآية 155.

2- سورة البقرة، الآية 55.

3- "الألوهية والحاكمية دراسة علمية من خلال القرآن الكريم"، سامر إسلامبولي، دار الأوائل- سورية، الطبعة الأولى، 2000م، ص 107.

4- سفر الخروج 20: 2- 5.

2- سوء أدبهم مع الله تعالى:

وذلك بالافتراء والكذب على الله ﷻ، وإضفاء الصفات البشرية على الذات الإلهية بوصفه تعالى بصفات النقص والعيب التي لا تليق بجلاله، وقد قدم لنا القرآن في هذا الصدد نماذج مختلفة من إلحادهم، فذكر فضائحهم الشنيعة في حق الله تعالى، وتطاولهم عليه ﷻ، وقص ما هو أبشع وأفظع، حيث قالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [1]، وقالوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ [2]، وقالوا: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [3]، ووصفوا الله ﷻ بالعجز والتعب، فزعموا أن الله سبحانه وتعالى قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فتعب واستراح وتنفس في اليوم السابع، فأمرهم بزعمهم أن يسبتوا فيه، أي يرتاحوا، ولا يقوموا بأي عمل من أي نوع، ولقد جاء في التوراة حديث مفصل عن السبت:"وكلم الرب موسى قائلاً سبوتي تحفظونها، لأنها علامة بيني وبينكم في أجيالكم، فتحفظون السبت لأنه مقدس، مَنْ دنّسه يقتل قتلاً، إن كل من عمل فيه عملاً تقطع تلك النفس من شعبها ستة أيام بصنع عمل، أما اليوم السابع ففيه سبت عطلة، مقدس الرب لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس"[4]، ولقد كذّب القرآن ادعاءهم هذا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [5]، وقال ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [6].

ويسجل القرآن بتفصيل عدم التزام اليهود بالسبت واحتيالهم بخبث ومكر لكسره ونقض عهده، فلعنهم الله، وغضب عليهم، وجعل منهم قردة وخنازير، قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ

1- سورة المائدة، الآية 64.

2- سورة آل عمران، الآية 181.

3- سورة التوبة، الآية 30.

4- سفر الخروج 31: 12- 18.

5- سورة ق، الآيتان :38- 39.

6- سورة الأحقاف، الآية 33.

﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ
رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا
الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1].

وقد أورد الإمام القرافي مقالة اليهود هذه، وردَّ عليها في السؤال السابع والثمانين من الباب الثالث، قال:"قالت اليهود في التوراة:"إن الله تعالى لما خلق الخلق في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع"، ظنوا لغلط أفهامهم أن الله تعالى يعتريه التعب والنصب، حتى نقل عن بعضهم في غير التوراة: "أنه تعالى في اليوم السابع استلقى على ظهره واضعاً إحدى رجليه على الأخرى"، وفي هذا جهالات منها:

1-التجسيم.

2- ضعف القدرة لطريان التعب والنصب.

3- أنه يلزمهم أن يكون إلههم حادثاً، فإن محل الحوادث يجب أن يكون حادثاً، والتعب والنصب حوادث، فأين هذا من قول المسلمين: "إن خلق الله تعالى لجملة العوالم كخلقه لأقل جزء من جناح بعوضة، وإن إيجاده بأن يقول للشيء كن فيكون" ! واعتقاد المسلمين أن صنعه للأشياء بلا علاج ومخالطة لها وبلا مزاج، وأن علمه محيط بكل شيء صنعه، ولا علة للصنعة، فهذا هو التوحيد والتمجيد اللائق بجلال الربوبية وتعظيم الله تعالى، وأما قول اليهود فتأنف منه دبغة الجلود، **وهذه المواضع وشبهها من أعظم الأدلة على تبديل التوراة**، وأنها غير المنزلة من الله تعالى، وهذا يجزم به كل عاقل"[2].

ويخبر القرآن عن اليهود بأنهم وصفوا الله تعالى عن قولهم علواً كبيراً بأنه بخيل، وعبروا عن ذلك بقولهم :" يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ"، أي ممسكة وقابضة، قال تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ

1- سورة الأعراف، الآيات 163- 167.

2- " الأجوبة الفاخرة"، مرجع سابق، ص 182.

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [1]، وقد رد الله ﷻ عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما افتروه، فقال: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾، وبيّن أنهم جمعوا بين شرور الأمور كلها، فعندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [3]، ثم قال تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، فهو سبحانه جواد ينفق كيف يشاء، إن شاء وسع في الرزق، وإن شاء قتر، الواهب الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو المعطي والمانع والقابض والباسط والرازق والقادر، يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [4].

وكما وصفوه تعالى بالإمساك والتقتير، وصفوه أيضاً بالفقر، قال تعالى حاكياً قولهم: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ

1- سورة المائدة، الآية 64.

2- سورة النساء، الآيتان 53- 54.

3- سورة البقرة، الآية 61.

4- سورة إبراهيم، الآيات 32- 34.

﴿ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [1]، وهـذا قـول أحـد أحبـارهم، يقـال لـه فنحاص، كان يُعَلِّم اليهود في بيت المدراس، حين دعاه أبو بكر الصديق إلى الإيمان بمحمد ﷺ فرفض قائلاً: "والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً ما استقرض منا، كما يـزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطاك الربا"[2]، وقد توعدهم القرآن على هذا القول العظيم، وسجله جانب فعلهم الشنيع مع أنبياء الله تعالى، ليجازيهم عليه شر الجزاء.

ومن أقوالهم الشنيعة أيضاً زعمهم أن عزيراً ابن الله، وهذه فرية على الله تعالى، لا مستند لهم فيها سوى الكذب والافتراء، قال تعالى حاكياً كفرهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [3]، ويشير القرآن إشارة بليغة بقوله تعالى: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ ﴾ [4]، فنسبُ الولد إلى الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لم يكن قول اليهود وحدهم أو قول النصارى وحدهم، بل هو قول يشابهون فيه قول الأمم التي ضلت قبلهم، ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾، وقيل: المعنى أنه لما كان قولاً ساذجاً، ليس فيه بيان ولا برهان، وإنما هو قول بالفم، مجرد نَفَس لا معنى تحته صحيح، لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة، فكيف يزعمون أن له ولداً، فهو كذب وقول لساني فقط بخلاف الأقوال الصحيحة التي تعضدها الأدلة، ويقوم عليها البرهان، قال أهل المعاني: إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا كان زوراً، كقوله: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا

1- سورة آل عمران، الآية 181.

2- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 342.

3- سورة التوبة، الآية 30.

4- سورة التوبة الآية 30.

لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [1] و﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [2]، و﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [3].

وما يمكن ملاحظته لما جاء به القرآن في مناقشة اليهود أنه عرض لعقائد مختلفة زمنياً، منها ما جاء في كتبهم المقدسة، ومنها ما لم يذكر، فذكر عقيدة التجسيد المتمثلة في عبادة العجل، وطلب رؤية الله التي ظهرت منذ زمن موسى عليه السلام، وذكر عقيدتهم في عزير، وهو لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص، لأنه ليس كل اليهود قالوا ذلك، وذكر قولهم : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾، وهذا قول صدر من بعض اليهود زمن النبي محمد ﷺ، وقد يطرح هذا مشكلة معهم، خاصة أنهم قوم منكرون، وعن هذا الأمر يقول الجاحظ:" فأما قولهم إنا نقول على الناس ما لا يعرفونه، ولا يجوز أن يدينوا به، وهو قولنا إن اليهود قالت: إن الله تعالى فقير ونحن أغنياء، وإنها قالت: إن يد الله مغلولة، وإنها قالت: عزير ابن الله، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ينكرون ذلك ويأبونه أشد الإباء.

قلنا لهم: إن اليهود، لعنهم الله تعالى، كانوا يطعنون على القرآن، ويلتمسون نقضه، ويطلبون عيبه، ويخطئون فيه صاحبه، ويأتونه من كل وجه، ويرصدونه بكل حيلة، ليلتبس على الضعفاء، ويستميل قلوب الأغبياء.

فلما سمعوا قول الله تعالى لعباده الذين أعطاهم قرضاً وسألهم قرضاً على التضعيف، فقال عز من قائل:"من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له"، قالت اليهود على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعنت: تزعم أن الله يستقرض منا، وما استقرض منا إلا لفقره وغنانا !، فكفرت بذلك القول، إذ كان على وجه التكذيب والتخطئة، لا على وجه أن دينها كان في الأصل أن الله فقير وأن عباده أغنياء.

وأما قولهم: إن اليهود لا تقول: إن عزيراً ابن الله، فإن اليهود في ذلك على قولين: أحدهما خاص، والآخر عام في جماعتهم.

1- سورة آل عمران، الآية 167.

2- سورة الكهف، الآية 5.

3- سورة الفتح، الآية 11.

فأما الخاص فإن أناساً منهم لما رأوا عزيراً أعاد عليهم التوراة من تلقاء نفسه، بعد دروسها وشتات أمرها غلوا فيه، وقالوا ذلك، وهو مشهور من أمرهم، والقول الذي هو عام فيهم أن كل يهودي ولَدَه إسرائيل فهو ابن الله، إذ لم يجدوا ابن ابن قط إلا هو ابن"[1].

1- "المختار في الرد على النصارى"، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق ودراسة: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، مكتبة الزهراء، القاهرة، الطبعة الأولى، 1411هـ-1991م، ص83 - 86.

المبحث الثاني

تصحيح عقيدة النبوة

صحَّحَ القرآن المصطلحات الخاطئة المتعلقة بالعقيدة الصحيحة، والنبوة أصلاً من أصول هذه العقيدة، خضعت في الدين اليهودي لتحريف كبير كتشويه صورة الأنبياء والرسل الكرام، ووصمهم بالنواقص وقبائح الأعمال، ولذلك نجد اختلافاً كبيراً بين معنى النبوة في الديانة اليهودية والمعنى الذي جاء به القرآن.

وإذا كانت نبوة القرآن نبوة هداية وتعليم وبلاغ إلى العقل والضمير بإقناع الناس بالبينات والآيات، فالنبوة عند بني إسرائيل عكس ذلك، فهي خليط ممزوج من السحر والرؤيا والأحلام[1]، ويصعب التمييز بين النبوة الصحيحة والنبوات الأخرى في ظل هذا الخليط، "والواقع أن النبوة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بني الإنسان، ومن عجيب الاستقصاء أن القرآن الكريم قد أحصى النبوات الغابرة بأنواعها، فلم يدَع منها نوعاً واحداً يعْرِفه اليوم أصحاب مقارنة الأديان، ومن تلك الأنواع نبوءة السحر، ونبوءة الرؤيا والأحلام، ونبوءة الكهانة، ونبوءة الجذب أو الجنون المقدس، ونبوءة التنجيم وطوالع الأفلاك"[2].

فالقرآن يقدم الأنبياء والرسل في صورة كريمة، هم الصفوة المختارة من البشر، اختارهم الله واصطفاهم لهداية الناس إلى طريق الحق، وأمرهم بتبليغ منهجه وشرائعه إليهم، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وصفهم القرآن بكمال العقل وصدق القول وأمانة التبليغ، قال تعالى في وصفهم:

- ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا

1- "ما يقال عن الإسلام"، عباس محمود العقاد، سلسلة دار الهلال، العدد 189 دجنبر 1966م، ص 56.

2- "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص 61.

فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1].

- وقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [2].

"ونستعرض الكتاب المجيد، فتطالعنا صور ونماذج، لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون، ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوباً يتدفق بالحياة، ويفيض بالبشر، وينم عن الحب والإيثار، فيذكُرهم بالثناء العاطر، ويصفهم بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية، كل ذلك ليدل على أنهم الصفوة المختارة من خلق الله، والمثل العليا الكاملة للبشرية"[3]، ومن آي القرآن في حق الأنبياء الكرام قوله تعالى في حق إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [5]

- وقوله تعالى في حق إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [6].

1- سورة الأنعام، الآيات 83 - 90.

2- سورة مريم، الآية 58.

3- "النبوة والأنبياء" محمد علي الصابوني، الطبعة الثانية، 1400هـ- 1980م، ص 38- 39.

4- سورة مريم، الآية 41.

5- سورة النحل، الآيات 120- 122.

6- سورة مريم، الآيتان 54- 55.

- وقوله تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [1].

- وقوله تعالى في حق داوود وسليمان عليهما السلام: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [2].

- وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [3].

- وقوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [4].

- وقوله تعالى في حق يحيى عليه السلام: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [5].

- وقوله تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [6].

1- سورة مريم، الآيتان 51- 52.
2- سورة الأنبياء، الآية 79.
3- سورة النمل، الآيتان 15- 16.
4- سورة سبأ، الآيات 10- 13.
5- سورة مريم، الآيات 12- 15.
6- سورة مريم، الآيات 30- 33.

وهكذا نجد القرآن حين يتحدث عن الأنبياء الكرام يصفهم بأسمى الصفات العالية، وينعتهم بأكمل النعوت، كيف لا وهم قدوةُ البشرية إلى الخير ومنارها.

من هنا كانت النبوة والرسالة خالصة لله تعالى، يختص بها من يشاء من خلقه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وهذا الفهم القرآني للنبوة نجده حاضراً في تعاريف علماء المسلمين، يقول الإمام ابن حزم: "النبوة هي بعثة قوم قد خصهم الله تعالى بالحكمة والفضيلة والعصمة، لا لعلة إلا أنه شاء ذلك، فعلَّمهم الله تعالى العلم من دون تعلم، ولا تنقل في مراتبه، ولا طلب له"[3]. فالنبوة لا تكون بالوراثة، ولا تكون بطريق الغلبة. والاستعلاء أو التعلم والاستعداد، وإنما هي اختيار إلهي محض عكس ما تدعيه كتب اليهود وعلماؤهم، حيث يجعلون قوة التخيل هي أساس النبوة، ويجعلون النبوة مبادرة شخصية مفتوحة الأبواب لكل من أراد وامتلك العزيمة للدخول فيها، يقول سبينوزا: "النبوة أو الوحي هي المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شيء ما، **والنبي هو مفسر ما يوحي الله به لأمثاله من الناس الذين لا يقدرون على الحصول على معرفة يقينية به**، ولا يملكون إلا إدراكه بالإيمان وحده"[4]، ويقول في مكان آخر: "انتهينا من الفصل السابق، كما أشرنا من قبل، **إلى تمتع الأنبياء بقدرة أعظم على الخيال الحي لا بفكر أكمل**، وفي روايات الكتاب المقدس البراهين الكافية على ذلك، فمن المسلَّم به مثلاً **أن سليمان لم تكن لديه هبة النبوة**، مع أنه فاق سائر البشر في حكمته، وكذلك لم يكن الرجال ذوو العقل الراجح أمثال هيمان ودرداع وكلكول أنبياء، على حين كان رجال **غرباء عن العلم**، وكذلك **بعض النساء الجاهلات** مثل هاجر خادمة إبراهيم **لديهم هبة النبوة**"[5]، فالظاهر أن الوحي هو معرفة نظرية ومصطلحات مطلقة كالصدق والخير.. أما عند سبينوزا فهو مجرد تصورات وتمثلات خيالية، والنبي مفسر لهذه الأفكار، يعبر عنها بأفكاره الخاصة وفهمه الخاص، وتساعده في ذلك ثقافته وتجاربه الإنسانية، وإذا أخطأ النبي في تفسيره لهذه

1- سورة الحج، الآية 75.

2- سورة آل عمران، الآية 33.

3- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، الإمام ابن حزم، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 140.

4- "رسالة في اللاهوت والسياسة"، سبينوزا، مرجع سابق، ص 123.

5- المرجع نفسه، ص 145.

الأفكار فهذا لا يعني أن هذه الأخيرة خاطئة، والاتجاه نفسه سلكه Alfred Harrington حين عرَّف الوحي بأنه مجموعة من الأفكار النظرية التي تتعلق بحقائق غيبية، يوحيها الله إلى النبي، ويقوم النبي بفحصها وتحديد قيمتها بكل عناية وتحريرها في رسالة بكل دقة(1)، وهذا مسلك يسعى اليهود والنصارى على السواء خلاله إلى تسويغ **ما ورد في الكتاب المقدس من أخطاء وأفكار مناقضة للتاريخ والواقع والعلم، فينسبون تلك الأخطاء إلى الأنبياء، لأنهم في نظرهم لم يُحسنوا التعبير عن الأفكار التي أوحاها الله إليهم**

أما الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد فيَظهر من تعريفه بكل وضوح تأثُّره بالفكر الفلسفي، حيث إنه يستعمل مصطلحات فلسفية كـ "الفيض" و"العقل الفعَّال"، يقول:"اعلم أن حقيقة النبوة وماهيتها هي فيض يفيض من الله عز وجل بوساطة العقل الفعَّال على القوة الناطقة أولاً، ثم على القوة المتخيلة بعد ذلك، وهذه هي أعلى مراتب الإنسان، وغاية الكمال الذي يمكن أن يكون لنوعه، وتلك الحالة هي غاية كمال القوة المتخيلة، وهذا أمر لا يمكن في كل إنسان بوجه، ولا هو أمر يصل إليه بالكمال في العلوم النظرية، وتحسين الأخلاق حتى تكون كلها على أحسن ما يكون وأجمله من دون أن يضاف إلى ذلك كمال القوة المتخيلة في أصل الجبلة على غاية ما يمكن"(2).

وهذه القوة المتخيلة هي كأي قوة بدنية، تضعف مرة وتقوى مرة، يضيف ابن ميمون قائلاً: "وقد علمت أن كل قوة بدنية تكلّ وتضعف وتختل وقتاً وتصحّ وقتاً آخر، وهذه القوة المتخيلة قوة بدنية بلا شك، فلذلك تجد الأنبياء تعطلت نبوتهم عند الحزن أو الغضب ونحوهما، قد علمت أن النبوة لا تنزل عند الحزن وعند الكسل، وإن أبانا يعقوب لم يأته وحي طول أيام حزنه لاشتغال قوته المتخيلة بفقد يوسف"(3).

وهذا مخالف للرؤية الإسلامية للنبوة، يقول فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوي:"إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء أن العلم الذي ينشرونه بين الناس والعقيدة التي يدعون إليها والدعوة التي يقومون بها **لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم، أو تألمهم** بالوضع المزري الذي يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، **وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم** الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يصطفون لها، ويكرمون بها، فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء، أو المصلحين وجميع أصناف

1- Nouvelle introduction de la Bible, Wilfrid HARRINGTON, traduit de l'anglais par Jacques WINANDY, Préface de ROLANDE DE VAUX; édition du SEUIL, Paris 1971; Page:64

2- "دلالة الحائرين"، موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي، عارضه بأصوله العبرية والعربية د. حسين أتاي، مكتبة الثقافة الدينية، ص 400.

3- المرجع نفسه، ص 404.

القادة الذين جرَّبتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى، والقول الفصل في ذلك قول القرآن الكريم على لسان سيد الرسل ﷺ: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1]"[2]، وقد حاول الندوي خلال تعريفه هذا إبعاد كل تلك المعاني الخاطئة التي يخلطها فلاسفة اليهود والمسيحيين بمعنى النبوة.

فلا يكون الذكاء أو الحمية أو هاجس الإصلاح أبداً مصدراً للنبوة، وإذا كانت النبوة عندهم لا تصدر إلا من هذه الأمور فلا نستغرب حين نقرأ في كتابهم المقدس عن رجال، غلبوا "الله" بقوتهم البدنية، فأصبحوا أنبياء[3]،وعن رجال دفعتهم مرارة الواقع الذي يعيشونه، فأصبحوا مصلحين، وبذلك صنفوا في خانة الأنبياء[4]، وعن رجال استغلوا ذكاءهم، ولبسوا ثوب النبوة، ليستفيدوا من الأموال التي يغدقها عليهم الحكام[5]، وعن رجال تعلموا النبوة، وترقوا في مراتبها.

وأكثر من ذلك تتحدث التوراة عن وجود **مدارس للأنبياء**، فقد "كانت في بيت إيل مدرسة خاصة لأنبياء الله، وكانت إحدى مدارس كثيرة للأنبياء، شرعت في إيقاف تيار الانحدار الروحي والأدبي، الذي بدأ في عهد يربعام، ويبدو أن أكثر المدارس كانت في الجلجال وأريحا وبيت إيل، والذين التحقوا بهذه المدارس كانوا يتدربون على أن يكونوا المتكلمين عن الله."[6]

1- سورة يونس، الآية 16.

2- "النبوة والأنبياء"، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص 30.

3- سفر التكوين 32: 25- 29، ويعنونون هذه الفقرة بـ: **صراع يعقوب مع الله** : "، وبقي يعقوب وحده، فصارعه رجل حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقوى على يعقوب في هذا الصراع ضرب حُقّ وركه، فانخلع، وقال ليعقوب: طلع الفجر، فاتركني، فقال يعقوب: لا أتركك حتى تباركني، فقال الرجل: ما اسمك؟ َقال اسمي يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك يعقوب بعد الآن بل إسرائيل، لأنك غالبت الله والناس وغلبت".

4- تقول التوراة إن شاول نُصِّبَ ملكاً على بني إسرائيل بعدما ساء حالهم، لأن الرب مسحه رئيساً على شعبه إسرائيل، وكان من آيات ملكه أنه سيدخل في جماعة من الأنبياء، فيصبح نبياً مثلهم، "ثم تجيء إلى جبعة الله، حيث معسكر الفلسطينيين، فتصادف عند دخولك المدينة جماعة من الأنبياء نازلين من الثلة، فيحل عليك روح الرب، وتتنبأ معهم وتصير رجلا آخر"، سفر صموئيل الأول 10: 5- 6.

5- سفر الملوك الأول 22: 13: "بصوت واحد تنبأ الأنبياء للملك بالنصر"، سفر الأخبار الثاني 18: 11- 12: "وكان جميع الأنبياء يتنبؤون هكذا، ويقولون للملك: اذهب إلى راموث جلعاد فتنتصر، لأن الرب يسلمها إلى يدك، وقال الرسول لميخا: بصوت واحد تكلم الانبياء بخير للملك، ليكن كلامك مثل كلامهم".

6-"التفسير التطبيقي للكتاب المقدس" التعريب والجمع التصويري والمونتاج والأعمال الفنية، القاهرة –مصر، شركة Master Media (Printed in Great Britain 1997)، ص 778، يمكن الرجوع إلى سفر الملوك الثاني 2: 2.

وتحكي التوراة عن وجود **أكثر من مئة نبي في زمن واحد**، جاء في سفر الملوك الأول "وكان الجوع شديداً في السامرة، فدعا آخاب عوبيديا القيِّم على القصر، وكان رجلاً يخاف الرب، حتى إنه لما بدأت إيزابل تبيد أنبياء الرب، أخذ مئة منهم وأخفاهم"[1]، بل وصل إلى أكثر من أربعمئة نبي في زمن واحد، ففي السفر نفسه: "فجمع ملك إسرائيل نحو أربعمئة رجل من الأنبياء وسألهم"[2].

ويتميز هؤلاء الأنبياء بأنهم كانوا خليطاً من صنفين متعارضين، كلاهما يدّعي تلقي رسالة الرب، ويطلق عليهما في العرف الكتابي أنبياء حق وأنبياء كذبة، ويمكن التمييز بين هاتين الفئتين:

- فالأنبياء الكذبة كانوا آلة في أيدي الملوك والسلاطين خاضعين لإرادتهم، بينما الأنبياء الحق لا يخضعون إلا للرب، ولا ينطقون إلا عنه.

- مهمة الأنبياء الكذبة تنحصر في التنبؤ بوقائع المستقبل، والتنبؤ بما يرضي أصحاب السلطة، ويسر العامة، أما الأنبياء الحق فنجد مهامهم تتنوع وتختلف باختلاف الأحوال والمناسبات، ولم يكن التنبؤ بالمستقبل العنصر الأساس في نبوتهم، كما أنهم لم يسخّروا النبوة لخدمة الملوك ولا العامة.

- الأنبياء الكذبة كانوا يؤجرون على نبوءاتهم، فاتخذوا النبوة حرفة يرتزقون منها، وكان الأنبياء الحق يحتسبون أجورهم عند الرب[3].

وتصف التوراة أعمالهم السيئة، فتقول: "وقال الرب عن الأنبياء الذين يضللون شعبه، وينادون بالسلام: إذا كان لهم ما ينهشونه بأسنانهم، ويفرضون الحرب على من لا يملأ أفواههم، يكون ليلكم بلا رؤيا، وظلامكم من دون عرافة، فتغرب الشمس على الأنبياء وعليهم يظلم النهار، ويخزى الراؤون، ويخجل العرافون، ويعضون جميعاً على شفاههم، فلا جواب لهم من الرب، اسمعوا يا آل يعقوب، يا قضاة بيت إسرائيل، يا من تمقتون العدل، وتعوجون كل استقامة، وتبنون صهيون بالماء، وأورشليم بالجور، فرؤساؤها يحكمون بالرشوة، وكهنتها يُعلمون بالأجرة، أنبياؤها يتنبؤون بالفضة، ويعتمدون على الرب قائلين: الرب قائم في وسطنا، فلا يحل بنا شر"[4].

1- سفر الملوك الأول 18: 3- 4.

2- سفر الملوك الأول 22: 6.

3- يمكن الرجوع إلى كتاب "التفسير التطبيقي للكتاب المقدس"، ص 753.

4- سفر ميخا 3: 5- 11.

"وقال الرب القدير: لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبؤون لكم، ويخدعونكم، هم يتكلمون بما يتراءى لهم، لا بما أقول أنا الرب.

أنا لم أرسل أولئك الأنبياء، يقول الرب: بل هم أرسلوا أنفسهم، وأنا لم أكلمهم، بل هم تنبؤوا...

سمعت ما تنبأ به الأنبياء باسمي زوراً قائلين: رأينا ذلك في الحلم، فإلى متى يدوم الكذب في قلوب الأنبياء المتنبئين بالكذب"[1].

ولهذا نجد سلسلة أنبياء بني إسرائيل طويلة، وقد أكد القرآن نبوة بعضهم كموسى وهارون وداوود وسليمان، عليهم السلام، وسكت عن بعضهم الآخر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2]، ويحتل موسى عليه السلام عند بني إسرائيل المكانة الكبيرة بين الأنبياء، يقول ابن ميمون:"إن هذه دعوة سيدنا موسى لنا، لم تقدم مثلها لأحد، ممن علمناه من آدم إليه، ولا تأخرت بعده دعوة مثلها لأحد من أنبيائنا"[3].

ولا تقتصر توراتهم على ذكر أنبياء بني إسرائيل فقط، بل تشمل أيضاً بعض أنبياء العرب كأيوب عليه السلام الذي خصت له التوراة سفراً كاملاً وملكي صادق صاحب إبراهيم عليه السلام، ويثرون معلم موسى، وبلعام نبي الكنعانيين.

ولعل اقتحام الأنبياء العرب لدائرة نبوة بني إسرائيل لم يكن مصادفة وإنما هو نتيجة للدور الذي قام به هؤلاء الأنبياء في ترسيخ المعنى الصحيح للنبوة لأنبياء بني إسرائيل، وما ثبت في كتب اليهود أنفسهم يؤكد ذلك، فأنبياء العرب كانوا معلمين لهم، منهم أخذوا شعائر العبادة، وتلقوا علم الدين، "ويثرون كما جاء في العهد القديم، هو الذي علم موسى عليه السلام علم التبليغ وإقامة الشريعة، وهو الذي أمَّه وأمَّ قومه لصلاة القربان[4]"، وفي تاريخ العرب من أخبار الأنبياء ما ليس في تاريخ اليهود، ومنهم صالح وهود وذو الكفل عليهم السلام، وكلمة "النبي" نفسها لم تكن معروفة عند اليهود قبل دخولهم أرض

1- سفر إرميا 23: 16- 21- 26.

2- سورة غافر، الآية 78.

3- "دلالة الحائرين"، موسى بن ميمون، مرجع سابق، ص 412.

4- سفر الخروج، الإصحاح 4 و 12.

كنعان، وإنما كانوا يسمون النبي بالرائي ورجل الرب[1] على رواية العهد القديم[2]، وتؤكد التوراة أن مصطلح "نبي" دخيل على الحقل اللغوي التوراتي فتقول:"وكان فيما سبق إذا أراد أحد من بني إسرائيل أن يذهب ليستشير الله يقول:"تعالوا نذهب إلى الرائي"، لأن الذي يقال له اليوم "نبي" كان يقال له من قبل راء"[3].

وتصف التوراة الأنبياء الكرام بصفات، يتنزه عنها عامة البشر، ونقائصَ يتأفف الرجل العادي عن إتيانها، ولا ينزلق فيها إلا أصحاب النفوس المريضة، فما ينسبونه إلى الأنبياء الكرام من الكذب والخداع وارتكاب المعاصي لا يسعنا إلا إنكاره أشد الإنكار، لأن إساءة الأدب إلى كتاب من كتب الله أو نبي من أنبياء الله عليهم السلام من أقبح المحظورات، ولا يمكن التسليم به.

فقد صورت التوراة الأنبياء الكرام بأنهم عصبة من الأشرار، يشربون الخمر، ويزنون، ويكذبون، ويخادعون ويقتلون، فنوح سكر، وتعرى في خيمته، حتى رأى ابنه عورته، وإبراهيم لا همَّ له إلا جمع المال، حتى إنه تاجر بزوجته الجميلة عند الملوك ليربح ويأكل، ولوط شرب الخمر، وزنى بابنتيه، وحملتا بالزنا منه، ويعقوب سرق البركة والنبوة والأغنام من أخيه عيسو، ويهوذا زنى بامرأة ابنه، وموسى ولد من زواج باطل ومحرم، وصنع الحية النحاسية التي عبدها بنو إسرائيل، وهارون صنع عجلاً وبنى له مذبحاً، فعبده مع بني إسرائيل، وسجدوا له، وذبحوا الذبائح أمامه، وداوود زنى بزوجة أوريا، وحملت منه بالزنا، وأشار إلى أمير العسكر، لأن يدبر أمراً يقتل به أوريا، وسليمان ابن هذه المرأة الزانية ارتد في آخر العمر، وعبد الأصنام، وبنى المعابد لها، ومات مرتداً مشركاً، وهذه التهم العظيمة جاءت مفصلة في توراتهم[4]، وحاشا لله أن تكون هذه هي التوراة المنزلة من عند الله على سيدنا موسى عليه السلام، وإنما هي افتراءات باطلة منسوبة إلى وحي الله تعالى:

- ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [5].

1- من أمثلة تسمية التوراة للنبي رجل الله أو رجل الرب ما جاء في سفر الملوك 13: 1- 10:"فلما سمع الملك كلام رجل الله مدَّ يده".

2- "ما يقال عن الإسلام"، العقاد، مرجع سابق، ص 113.

3- سفر صموئيل 9: 9.

4- سفر التكوين 9: 20- 26، 12: 10 - 20، 19: 30 - 38، 27: 1- 39، 38: 12- 26، سفر الخروج 2:1 و6:20، سفر الملوك الثاني 4:18، سفر الخروج 32: 1 - 4، سفر صموئيل الثاني 11: 2 - 3، سفر صموئيل الثاني 12: 24، سفر الملوك الأول 11: 4 - 5.

5- سورة البقرة، الآية 79.

- ومثلـــه: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ (1).

ويعلق الإمام ابن حزم على قصة نوح عليه السلام في التوراة فيقول: " في هذه الفصول فضائح وسوءات تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى، العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام.

- فأولها ما ذكر عن ابنتي لوط عليه السلام من قولهما: "ليس أحد في الأرض يأتينا كسبيل النساء، تعالي نسق أبانا خمراً، ونضاجعه ونستبق منه نسلاً"، فهذا كلام أحمق في غاية الكذب والبرد، أترى كان انقطع نسل ولد آدم كله، حتى لم يبق في الأرض أحد يضاجعهما؟، إن هذا لعجب، فكيف والموضع معروف إلى اليوم؟، ليس بين تلك المغارة التي كان فيها لوط عليه السلام مع ابنتيه، وبين قرية سكنى إبراهيم عليه السلام إلا فرسخ واحد لا يزيد، وهو ثلاثة أميال فقط، فهذه سوءة.

- والثانية إطلاق الكذاب الواضع لهم هذه الخرافة لعنه الله - هذه الطومة- على الله عز وجل من أنه أطلق نبيه ورسوله ﷺ على هذه الفاحشة العظيمة من وطء ابنتيه واحدة بعد أخرى.

فإن قالوا: لا ملامة عليهم في ذلك، لأنه فعل ذلك وهو سكران، وهو لا يعلم من هما، قلنا: فكيف عمل إذ رآهما حاملين؟، وإذ رآهما قد ولدتا ولدين لغير رشدة؟، وإذ رآهما تربيان أولاد الزنى؟.

هذه فضائح الأبد، وتوليد الزنادقة المبالغين في الاستخفاف بالله تعالى وبرسله عليهم السلام.

- والثالثة إطلاقهم على الله تعالى أنه نسب أولاد ذينك الزنيمين، فرخي الزنى إلى ولادة لوط عليه السلام!، حتى ورثهما بلدين كما ورث بنو إسرائيل وبنو عيسو ابني إسحاق على السواء، تعالى الله عن هذا علواً كبيراً.

فإن قالوا: كان مباحا حينئذ، قلنا: فقد صح النسخ الذي تنكرونه بلا كلفة، وقالوا قبل هذا: إن إبراهيم إذ أمره الله تعالى بالمسير من حران إلى أرض كنعان أخذ مع نفسه امرأته سارة، وابن أخيه لوطاً بن هاران، وذكروا في بعض توراتهم أنه كلمته الملائكة، وأن الله تعالى أرسلهم إليه، فصح بإقرارهم أنه نبي الله عز وجل، وهم يقولون: إنه بقي في تلك

1- سورة الأنعام، الآية 91.

المغارة شريداً طريداً فقيراً، لا شيء له يرجع إليه، فكيف يدخل في عقل من له أقل إيمان أن إبراهيم عليه السلام يترك ابن أخيه الذي تغرب معه، وآمن به، ثم تنبأ مثله يضيع ويسكن في مغارة مع ابنتيه فقيراً هالكاً، وهو على ثلاثة أميال منه!، وإبراهيم على ما ذكر في التوراة عظيم المال، مفرط الغنى، كثير اليسار من الذهب والفضة والعبيد والإماء والجمال والبقر والغنم والحمير، ويقولون في توراتهم: إنه ركب في ثلاثمئة مقاتل وثمانية عشر مقاتلاً لحرب الذين سبَوْا لوطاً وماله، حتى استنفدوه، فكيف يضيعه بعد ذلك هذا التضييع؟، ليست هذه صفات الأنبياء ولا كرامتهم، ولا صفات من فيه شيء من الخير!، لكن صفات الكلاب الذين وضعوا لهم هذه الخرافات الباردة التي لا فائدة فيها ولا موعظة ولا عبرة، حتى ضلوا بها"[1].

ولا يختلف موقف علماء المسلمين في إنكار هذه الأباطيل المنسوبة إلى أشرف الخلق، يقول الشيخ رحمة الله الهندي مشيراً إلى عظم ما ينسبونه إلى الأنبياء الكرام، وهو ما يؤكد أن هذه الكتب التي بين أيديهم ليست من وحي الله تعالى:"فإن هذه القصص وأمثالها يجب علينا أن ننكرها، ونقول إنها غير صحيحة جزماً، ونعتقد اعتقاداً يقينياً أن ساحة النبوة بريئة من أمثال هذه الأمور القبيحة"[2].

ويقول أبو الحسن السبتي في باب ذكر ما اختلقوه في قصة داوود عليه السلام:"والذي ينبغي أن يعول عليه في هذه القصة وما يضاهيها من القصص ما جاء به الكتاب العزيز أو ما صح عن الرسول عليه السلام من الخبر، وما سوى ذلك فيطرح هو ومختلقه وراويه إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم"[3].

ولتنزيه ساحة النبوة من النواقص جاء القرآن بقصص الأنبياء وسيرهم العطرة، "ووصف حياتهم الطاهرة محفوفة بإطار من التضحية والإخلاص والترفع عن أهواء النفس، ما يجعل حياتهم قدوة صالحة لبني البشر، كما رفع القرآن منزلتهم وأمر المؤمنين بالاقتداء بهم، ولو ذكرنا الآيات القرآنية جميعها التي تنعت الأنبياء بالفضل والكرامة لضاق بنا المقال"[4].

1- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، ابن حزم، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 224- 225.

2- "إظهار الحق، الشيخ رحمة الله الهندي، دراسة وتحقيق: محمد أحمد خليل ملكاوي، الطبعة الثالثة، 1414هـ- 1994م، دار الحديث، القاهرة، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الجزء الأول، ص 12- 14.

3- "تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء"، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر- بيروت، الطبعة الأولى، 1990م، ص 27- 28.

4- "اليهود في القرآن"، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، الطبعة الحادية عشرة، شباط، 1986م، ص 260.

وفي ذكر القرآن لقصص الأنبياء لم يؤيد واحدة من هذه الادعاءات الباطلة، بل أثبت العصمة للأنبياء عليهم السلام، فالله ﷻ وهبهم هذه النعمة العظمى، وحفظهم من ارتكاب المعاصي والذنوب، صغيرها وكبيرها، وبخلاف سائر البشر لا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة لأوامر الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [1].

ويسجل القرآن في مواضع متعددة أبشع جريمة اقترفها اليهود في حق الأنبياء والرسل الكرام، وهي جريمة قتل الأنبياء بغير الحق متبعين أهواءهم الضالة وميولهم السخيفة والمنحرفة، قال تعالى:

- ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [2].

- وقال: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [3].

- ومثله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [4].

ولذلك استحقوا عذاب الله تعالى لهم وعقابه الشديد، قال تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [5].

1- سورة الأنبياء، الآية 73.

2- سورة البقرة، الآية 61.

3- سورة آل عمران، الآية 112.

4- سورة النساء، الآية 157.

5- سورة آل عمران، الآية 21.

- ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [1].

- وقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [2].

كما استحقوا كذلك لعنة الأنبياء عليهم، قال تعالى:

- ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [3].

وأنكر القرآن موقفهم الضال من أنبياء الله تعالى ونظرتهم الظالمة إليهم، فقد كانوا كلّما جاءهم رسول بما لا تميل إليه أنفسهم ولا يوافق هواهم كفروا به، واستكبروا عليه تجبراً وبغياً، فمنهم من كذبوه كعيسى ومحمد عليهما السلام، ومنهم من قتلوه كزكرياء ويحيى عليهما السلام، ولا تنكر توراتهم هذه الجريمة الشنيعة، بل تثبتها وتقرها[4]، وإن لم يكن قتل اليهود للأنبياء حتى زمن النبي محمد ﷺ فقد نسب القرآن القتل إلى معاصريه ﷺ، "لأنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم الغابرين، فأقروهم على القتل وغيره، ولم يعدوه مخالفة أو معصية وفاعل الكفر ومجيزه سواء"[5]، قال تعالى:

- ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [6].

- وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [7].

1- سورة آل عمران، الآية 181.

2- سورة النساء، الآية 155.

3- سورة المائدة، الآية 78.

4- سفر الملوك الأول 19: 10: يقول النبي إيليا مخاطباً الرب:"لأن بني إسرائيل نبذوا عهدك، وهدموا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، وبقيت أنا وحدي معك، وهاهم يطلبون حياتي".

5- "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج"، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، الجزء الأول، ص 225.

6- سورة المائدة، الآية 70.

7- سورة آل عمران، الآية 183.

المبحث الثالث

إثبات عقيدة اليوم الآخر

من مستلزمات عقيدة التوحيد الإيمان باليوم الآخر، فهو النتيجة الحتمية التي لا تنفك عن مقدمات هذه العقيدة، وهو المقياس الضابط لقوة الإيمان والدال على كمال التوحيد، ومن ثم اقترن الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر في كثير من آي القرآن، يقول تعالى:

- ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [1].

- ومثله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [2].

وتحدثت آيات كثيرة عن حتمية الموت، وأكدت أنه مصير كل مخلوق أياً كان، وجعلته آية واضحة أمام عين أي إنسان وبصيرته يأمل في الخلود، ويكره الموت، ويريد الهروب منه، ومن ثم ينكر اليوم الآخر، ولا يؤمن به، ولا يستعد ليوم الحساب، فنفت الخلود عن كل البشر وأكدت العلاقة القائمة بين النهاية الصغرى للإنسان وهي الموت، والنهاية الكبرى التي تكون بفناء العالم ووقوف العالمين بين يدي الله ﷻ يوم القيامة للحساب، قال تعالى:

- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [3].

1- سورة النساء، الآية 162.

2- سورة المجادلة، الآية 22.

3- سورة آل عمران، الآية 185.

- وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [1].

فالموت حقيقة، لا يستطيع أي شخص مهما كانت قوته وجبروته أن يفر منها، أو يردها عن غيره، قال تعالى:

- ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [2].

- وكذلك قال: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [3].

- ومثلـــــه: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [4].

ولم تكن النبوة حصناً منيعاً أمام الموت، فالأنبياء أيضاً بشر، يسري عليهم قانون البشرية، مآلهم لا يختلف عن مآل الآخرين، وبذلك خاطب الله ﷻ نبيه الكريم محمد ﷺ قائلاً: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [5].

وقد نبه القرآن المؤمنين إلى هذه الحقيقة تحصيناً لهم من الردة بعد موت النبي ﷺ، فكون محمد ﷺ نبياً لا يعصمه ذلك من الموت أبداً، قال تعالى:

- ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [6].

ويؤكد القرآن أنه ليس أمام الله ﷻ القادر على خلق الشيء من عدم أن يعيد خلق الإنسان، ويبعث فيه الحياة ثانية، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [7].

1- سورة الأنبياء، الآية 35.
2- سورة آل عمران، الآية 168.
3- سورة النساء، الآية 78.
4- سورة الواقعة، الآيات 83 - 85.
5- سورة الأنبياء، الآية 34.
6- سورة آل عمران، الآية 144.
7- سورة الروم، الآية 27.

وإن كان الموت نهاية فهو بداية لحياة أخرى، يقررها القرآن في عدة آيات كقوله تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [1]، ليرسخ عقيدة أساسية، هي **عقيدة البعث والحساب واليوم الآخر** التي طالما أنكرها أهل الأديان السماوية المحرفة، لا أتباع الأديان الوثنية فقط، ومألوف أنه لا يمكن أن يخلو دين صحيح من هذه العقيدة، إلا إذا كان محرفاً متناقضاً.

وإذا كانت عقيدتا التوحيد والنبوة كما رأينا في المبحثين السابقين قد عرفتا مع اليهود تشوهات كبيرة، **فعقيدة البعث لم تشوه فحسب، وإنما اختفت تماماً، ولم يعد لها وجود في العقيدة اليهودية بدليل اختفائها من التوراة المنسوبة إلى موسى**، فهذه التوراة "لا تحمل أي إشارة إلى اليوم الآخر، ومن المستحيل أن يكون الله قد أغفل هذا الأمر، ومن المستحيل أن يكون موسى قد نسيه، فلم يكتبه في التوراة، ولم يبلغه لأتباعه، لأن اليوم الآخر ركن أساس من أركان عقيدة التوحيد، وأمر ضروري لتمام العدالة الإلهية"[2]، يقول الإمام ابن حزم:"وفيها، أي التوراة، ما يوافق قول الملحدين الدهرية: الناس كالعشب إذا خرجت أرواحهم نسوا، ولا يعلمون مكانهم، ولا يفهمون بعد ذلك، قال أبو محمد: وإن دين اليهود ليميل إلى هذا ميلاً شديداً، لأنه ليس في توراتهم ذكر المعاد أصلاً، ولا الجزاء بعد الموت، وهذا مذهب الدهرية بلا كلفة، فقد جمعوا الدهرية، والشك والتشبيه وكل حمق في العالم"[3].

ولا يتعدى العقاب الوارد في التوراة - مهما كان الذنب عظيماً - العقاب الدنيوي كالمصائب الدنيوية التي تصيب الإنسان من مرض أو موت أو تسلط العدو، **فالشرك مثلاً من أكبر الكبائر، ومع ذلك لا يترتب عليه عقاب أخروي من عذاب أو نار**، كما لا يترتب على الالتزام بالإيمان والشريعة جزاء **سوى الجزاء الدنيوي**، جاء في سفر التثنية:"انظروا، ها أنا اليوم جعلت بين أيديكم الحياة والخير، والموت والشر، فإذا سمعتم كلام الرب إلهكم الذي أنا آمركم به اليوم، وهو أن تحبوا الرب إلهكم، وتسلكوا في طرقه، وتعملوا بوصاياه وسننه وأحكامه، فأنتم تحيون، وتكثرون، وتنالون بركة الرب إلهكم في الأرض التي أنتم داخلون إليها لتمتلكوها. وإن زاغت قلوبكم عني، ولم تسمعوا لي، وضللتم وسجدتم لآلهة أخرى وعبدتموها، فأنا أخبركم اليوم أنكم تبيدون، ولا تطول أيامكم في

1- سورة العنكبوت، الآية 64.

2- "دراسة في الأناجيل الاربعة"، محمد السعدي، دار الثقافة- قطر، الطبعة الأولى، 1405هـ- 1985م، ص 128.

3- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، ابن حزم، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 309.

الأرض التي أنتم تعبرون الأردن لتدخلوها وتمتلكوها، وأنا أشهد عليكم اليوم السماء والأرض بأني جعلت بين أيديكم الحياة والموت والبركة واللعنة، فاختاروا الحياة لتحيوا أنتم وذريتكم، أحبوا الرب إلهكم، واسمعوا كلامه، وتمسكوا به لأن به حياتكم وطول أيامكم في الأرض التي أقسم الرب إلهكم لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم"[1].

وقد وردت في بعض أسفار العهد القديم إشارات غامضة إلى يوم البعث، منها:

- "الرب يصون حياة الأبرار، وميراثهم يبقى إلى الأبد"[2].

- "اتق الله واحفظ وصاياه، فهذا فرض على كل إنسان، والله سيحاسب كل إنسان على عمله، خفياً كان أم ظاهراً، وخيراً كان أم سوءاً"[3].

- "وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، بعضهم للحياة الأبدية، وبعضهم للعار والذعر الأبدي"[4].

ولعل هذا الغموض هو الذي أدى إلى انقسام اليهود بشأن القيامة إلى فرق، وقد أشارت الأناجيل[5] إلى وجود فرقتين يهوديتين في عهد المسيح:

الفريسيون، وهم يؤمنون بالآخرة، ولكن يعتقدون أن البعث سيكون في هذه الأرض للصالحين من الأموات، حتى يشتركوا في مملكة المسيح الذي سيأتي في آخر الزمان، لينقذ الناس من الضلال.

الصدوقيون، وهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ويعتقدون أن الثواب والعقاب يكونان في الدنيا في أثناء حياة الإنسان.

ويبين القرآن أن دعوة موسى عليه السلام لم تختلف عن دعوة باقي الأنبياء والمرسلين، ولم تخرج عن منحى الرسالات السماوية، فهي دعوة لم تخل من الإيمان باليوم الآخر، ما يؤكد أن هذه العقيدة واردة في كتاب الله المنزل على موسى عليه السلام كسائر بقية الكتب التي

1- سفر التثنية 30: 15- 20.

2- مزمور 37: 18.

3- سفر الجامعة 12: 13- 14.

4- سفر دانيال 12: 2.

5- جاء في سفر أعمال الرسل 23: 7- 8: "وقع الخلاف بين الفريسيين والصدوقيين، وانقسم المجلس، لأن الصدوقيين لا يؤمنون بقيامة الأموات وبوجود الملائكة والأرواح، أما الفريسيون فيؤمنون بهذا كله".

أنزلها الله ﷻ على رسله، ولا يدل اختفاؤها من كتب اليهود إلا على تحريفهم وإخفائهم لكثير من النصوص، قال الله تعالى:

- ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1].

- وقال تعالى: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [2].

- وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [3].

- وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [4].

ويناقش القرآن عقيدة البعث والنشور مع اليهود في أماكن كثيرة، ففي سورة البقرة، وهي أطول سورة في القرآن تناولت قصة بني إسرائيل بكثير من التفصيل- يأتي التذكير

1- سورة الأعراف، الآيتان 155- 156.

2- سورة طه، الآيات 13- 16.

3- سورة طه، الآيات 51- 55.

4- سورة الأعلى، الآيات 16- 19.

باليوم الآخر بين الفينة والأخرى أكثر من مرة في ثنايا تذكير بني إسرائيل بتاريخهم الطويل المليء بالخيانة ونقض المواثيق والعهود مع الله وجحود رسالة الحق، ومن هذه الآيات قوله تعالى:

- ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (1).

- وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (2).

- ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (3).

- ومثله ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (4).

1- سورة البقرة، الآيات 45- 48.

2- سورة البقرة، الآية 62.

3- سورة البقرة، الآيات 84 - 86.

4- سورة البقرة، الآيتان 122- 123.

ولأن الإيمان بالبعث والنشور واليوم الآخر أمر غيبي، يصعب على العقول القاصرة تقبله، فقد استعمل القرآن لإقناع هؤلاء المنكرين الأدلة الحسية والعقلية، فقدم مشاهد حية من يوم القيامة، وبرهن بالدليل العقلي الذي يتجلى في قدرة الله ﷻ على إيجاد حياة أخرى بعد الموت، فأعطى نماذج تمثيلية لذلك، ليلزمهم بالإيمان والاعتقاد به، ويُقرِّب إلى تصوراتهم صورة الحياة بعد الموت، ومن هذه الأمثلة:

- قصة السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى عليه السلام لميقات ربه، فاشترطوا على موسى عليه السلام أن لا يؤمنوا له، حتى يريهم الله جهرة، فأماتهم الله ﷻ، ثم أحياهم، كما أخبر الله تعالى عنهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1].

- قصة العزير الرجل الصالح من بني إسرائيل، حيث مر على قرية أموات، فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟!، فأماته الله مئة عام ثم بعثه، وشاهد مشاهدة حسية كيف أحياه الله بعد أن أماته، كما رأى بنو إسرائيل من أهل قريته هذا الحدث التاريخي العجيب، يقول الله ﷻ: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2].

- قصة إماتة الألوف من بني إسرائيل حين أمروا بقتال عدوهم، فخرجوا من ديارهم فارين من مقابلة العدو خوفاً من الموت، ثم بعد هذه الإماتة الجماعية أحياهم الله تعالى، ليعلموا أن الفرار من القتال لا يحمي من الموت، وليعلموا أن البعث حق، قال تعالى في بيان قصة هؤلاء: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [3].

1- سورة البقرة، الآيتان 55- 56.

2- سورة البقرة، الآية 259.

3- سورة البقرة، الآية 243.

- قصة إحياء الطيور الأربعة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، لما طلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (1).

- قصة البقرة أو قصة إحياء القتيل ببعض أجزاء البقرة لسؤاله عن القاتل، **وهذه القصة لم يرد ذكرها في العهد القديم، ولا نجد لها أدنى إشارة**، والجانب الأهم من هذه القصة هو إظهار قدرة الله تعالى على بعث الموتى أحياء، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (2).

1- سورة البقرة، الآية 260.

2- سورة البقرة، الآيات 67 – 73.

الباب الثاني

منهج القرآن في مناظرته للنصارى

الفصل الأول

المسيح في القرآن

المبحث الأول

البيئة التي نشأ فيها المسيح عليه السلام

سلك القرآن مع النصارى منهجاً مخالفاً للمنهج الذي سلكه مع اليهود، واختلاف المنهجين ناتج من اختلاف القضايا التي يسعى كتاب الله تعالى إلى معالجتها مع كلا الفريقين، فإذا كان لبّ القضية التي تناظر فيها القرآن مع اليهود يتعلق بتصحيح قضايا العقيدة، انطلاقاً من تصحيح الأسس الأخلاقية لهذه الفئة، فالقضية الأساسية التي تناظر القرآن بشأنها مع النصارى قضية عقائدية أولاً، إذ انصب التركيز القرآني بسبب انحراف النصارى وردَّتهم عن عقيدة التوحيد على إثبات الوحدانية لله عز وجل، وتنزيهه عن الصاحبة والولد، ونفي الألوهية عن المسيح، وإثبات عبوديته عليه السلام لله تعالى.

فكان الأساس الذي انطلق منه القرآن في حواره مع النصارى هو عرضه لسيرة المسيح عليه السلام، والبيئة التي نشأ فيها، والأجواء المحيطة به، لتصحيح هذه السيرة وتنقيحها من الأخبار الكاذبة التي لحقتها، خاصة أن الأناجيل التي تعد مصدراً أساسياً لدى النصارى لم تدون إلا بعد زمن المسيح عليه السلام عشرات السنين، فوقع الاختلاف بين مؤرخي المرحلة في التفاصيل التي تتعلق بولادته عليه السلام، وتضاربت الأقوال بشأن الشخصيات التي أثرت فيه عليه السلام.

ومع أن الدعوة الإسلامية في بدايتها كانت في حاجة ماسة إلى من ينصرها ويدعمها، إلا أن القرآن لم يحاول خلال عرضه للأخبار النصرانية استغلال هذه الفئة للإيمان به، وجلبها إلى جانبه، ليعزز بها صفوفه، "وإذا كان القرآن يعترف بأن أقرب الناس مودة إلى المؤمنين هم الذين قالوا: إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، فإنه لا يجامل في بيان الحق وتوضيح الأمر وتصحيح فكرة الألوهية التي حرفها النصارى بعد عيسى"[(1)]، فأقر من أخبار النصارى ما كان صحيحاً، كالولادة المعجزة للمسيح عليه السلام، وعذرية السيدة مريم عليها السلام، وصحح منها ما كان خاطئاً كاعتقاد النصارى صلب المسيح، وأنكر بكل وضوح وقوة ما لا يصح نسبته إلى عيسى عليه السلام، ولا يتوافق وعقيدة التوحيد التي دعا إليها جميع الرسل الكرام، كادعاء النصارى ألوهية المسيح وبنوته لله عز وجل.

1- "التفكير الفلسفي في الإسلام"، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص83.

وقبل التطرق إلى بيان حقيقة المسيح عليه السلام، وحقيقة دعوته بدأ القرآن بتسليط الضوء على مسرح الأحداث المحيطة بسيرته المباركة، وما فيها من معجزات ودلالات بإعطائه معلومات هامة عن الشخصيات التي مهدت لمجيئه عليه السلام، والتي أغفلها كتّاب الأناجيل الذين ادعوا تدوين سيرة المسيح.

فبدأ القصة مع الأسرة التي خرج منها المسيح، وهي آل عمران، وذكر صلاحهم ومكانتهم الدينية المتميزة، فهم من البيوت التي اختارها الله عز وجل واصطفاها على سائر أهل الأرض، وعدّهم من المصطفين الأخيار في منزلة كبار الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1]، واعتماداً لهذه المكانة المتميزة التي حظيت بها أسرة آل عمران سميت باسمهم سورة من أطول سور القرآن.

وعمران[2] أبو مريم ذكره الله تعالى في ثلاث آيات قرآنية، وهو كما تذكر كتب التفسير والتاريخ الإسلامي كان رجلاً عظيماً بين العلماء في بني إسرائيل.

ومن الواجب دراسة هذه الشخصية لرفع اللبس الذي يمكن أن يقع بينها وبين شخصية عمرام الوارد ذكرها في التوراة في سفر الخروج، إذ تذكر التوراة أن والد موسى عليه السلام هو عمرام، وأن أخت موسى اسمها كذلك مريم، ويستغل المتنطعون هذه الفكرة، ليؤكدوا أن القرآن وقع في الخطأ والخلط بين هذه الشخصيات، ومن ثم يشككون في صدق القرآن وصحته من هذا الباب.

والحقيقة أن عمران المذكور في هذه الآية ليس "هو والد موسى عليه السلام، إذ لم يرد ذكره في القرآن الكريم في أي موضع بهذه الصفة، بل إن سياق الآيات وتعقيبها بذكر قصة مريم يدل بوضوح على أن المراد به عمران والد مريم وجد المسيح عليه السلام، **وبين عمران أبو مريم وعمرام أبو موسى ألف وثلاثمئة سنة**"[3].

وهذا الزعم الباطل الذي يروجه خصوم هذا الدين في محاولة لتشويه حقيقته بكل الوسائل الإيديولوجية المغرضة، حتى يزعزعوا عقيدة المسلم في وحي الله ليس أمراً

1- سورة آل عمران، الآيتان 33- 34.

2- ورد ذكر "عمران" في ثلاثة مواضع من القرآن، سورة آل عمران، الآيات 33 و35 وسورة التحريم الآية 12.

3- "حياة السيد المسيح في القرآن"، السيد حسين نجيب محمد، دار الهادي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م، ص 25.

غريباً ولا جديداً، بل هو شيء تعوّده المسلمون منذ فجر الإسلام، فقد رد النبي ﷺ هذا الزعم بكل بساطة، ورفع اللبس عن أصحابه، فعن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا لي: ألستم تقرؤون يا أخت هارون، وقد كان بين عيسى وموسى ما كان؟، فلم أدر ما أجيبهم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: **ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**"[1]، ويتأكد قول النبي ﷺ، وهوالصادق الأمين الذي لا يحتاج قوله إلى تأكيد، بما هو وارد في الكتاب المقدس الذي يذكر بعض الأسماء المتشابهة التي اتخذتها شخصيات مختلفة، كاسم أليعازر[2]، واسم زكرياء[3]، ومع ذلك لم يقل أحد إن الكتاب المقدس قد وقع في اللبس بين هذه الشخصيات، بل أكثر من ذلك نجد إنجيل متى، وهو يعطي نسب المسيح، يقول في آخر الشجرة المزعومة للسيد المسيح: "ويعقوب أنجب يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع"[4]، فلِمَ لم يقل أحد إن متى يدعي أن يوسف النبي عليه السلام هو رجل مريم، خاصة أن الإنجيل يقول إنه ابن يعقوب!.

وبعد بيان المكانة الرفيعة التي تحظى بها عائلة آل عمران، يتابع القرآن قصة الأحداث التي عاشتها هذه العائلة الكريمة، بقصة النذر الذي نذرته زوجة عمران في أن تجعل حملها الذي ظنته ذكراً محرراً لخدمة بيت الله، **وهذا النوع من النذور كان معروفاً لدى بني إسرائيل، ومع أن كتبهم، خاصة التوراة، تنص على أن العاملين في خدمة بيت الرب يحتاجون إلى الانتماء إلى أبناء هارون، أي إلى سبط بني لاوي**[5]، فقد أشارت التوراة أكثر من مرة إلى هذا النوع من النذور ومن خدام الهيكل، هؤلاء الذين لا ينتمون إلى ذرية هارون، وإنما يتقلدون هذه المهمة بناء على نذور خاصة، ينذرها آباؤهم، ولا يكون مقتصراً على الذكور بل على البنات أيضاً، وقد نظم شريعة هذه النذور الفصل السابع والعشرون من سفر اللاويين، حيث ورد قوله: "وكلم الرب موسى، فقال: قل لبني إسرائيل: إذا نذر أحد إنساناً للرب، وأراد أن يفك نذره فعلى حسب تقويمك له،

1- رواه الترمذي في "السنن"، مراجعة أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث - بيروت، 315/5، ورواه النسائي في "السنن الكبرى"، مراجعة: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م-1411هـ، 393/6، واللفظ للترمذي.

2- جاء ذكر اسم أليعازر ثلاث مرات في الكتاب المقدس، أليعازر بن هارون الوارد ذكره في سفر العدد 28:20، وأليعازر الدمشقي عبد لإبراهيم الوارد ذكره في سفر التكوين 2:15- 3، وأليعازر أخو مرثا الذي أحياه المسيح الواردة قصته في إنجيل يوحنا30:10- 31.

3- جاء الحديث في العهد القديم عن زكرياء النبي صاحب السفر، وجاء الحديث عن زكرياء الكاهن في إنجيل لوقا 5:1.

4- متى16:1.

5- اللاويون 1:8.

فيكون تقويمك للذكر من ابن عشرين سنة إلى ابن ستين خمسين مثقال فضة بالسعر الرسمي، وللأنثى ثلاثين مثقالا"[1]، وقد ورد في سفر صموئيل الأول قصة حنة أم صموئيل التي كانت عاقراً، والتي "نذرت نذراً للرب قائلة: يا رب الجنود إن عطفت على مذلة أمتك وذكرتني، ولم تنسني، بل وهبت أمتك ذرية، فإني أعطيه للرب كل أيام حياته، ولن أحلق رأسه"[2]، والقصة نفسها حدثت مع امرأة منوح أم شمشون، "وكان هناك رجل من بلدة صرعة من عشيرة الدانيين يدعى منوح، وامرأته عاقر لم تنجب، فتجلى ملاك الرب للمرأة، وقال لها: إنك عاقر، لم تنجبي، ولكنك ستحملين وتلدين ابناً، إنما إياك أن تشربي خمراً أو مسكراً أو تأكلي شيئاً محرماً، لأنك ستحملين وتنجبين ابناً، فلا تحلقي شعر رأسه، إن الصبي يكون نذيراً لله من مولده"[3].

وكانت المفاجأة في بيت آل عمران كبيرة، فما ظنته امرأة عمران ذكراً كان أنثى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾[4]، وخدمة البنات لبيت الرب لا ترقى لخدمة الذكور، لما تتطلبه من جهد واعتكاف وطهارة دائمة، لكن الله ﷻ قبل نذر امرأة عمران بقبول حسن، وأنبت السيدة مريم نباتاً حسناً، فقامت بخدمة الهيكل بفناء إلى جانب كاهنه زكرياء، وقد رأى منها زكريا عجباً، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فعلم أن الله الذي يرزق هذه الأمة التي لاحول لها ولا قوة قادر على أن يرزقه الذرية الصالحة، فاغتنم الفرصة يوماً، ودعا الله أن يهبه ذرية صالحة في اللحظة نفسها وفي المكان نفسه، فكانت له الإجابة: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى

1- اللاويون27:1- 4.

2- صموئيل الأول1:9- 11.

3- القضاة 13:2- 5.

4- سورة آل عمران، الآيات 35- 36.

﴿غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[1].

والغريب أن الأناجيل وبعض الكتب الأبوكريفا كإنجيل الفرقة الأبيونية وإنجيل يعقوب وإنجيل توما وقفت مع يوحنا المعمدان أكثر من وقوفها مع المسيح عليه السلام، فقد ولد يوحنا المعمدان بن زكرياء الكاهن نحو 4 ق.م من أمه اليصابات ابنة خالة مريم أم يسوع، وكان زكرياء وزوجته يسكنان في بلدة يطا قرب حبرون[2]، وتختلف قصة ولادته في الأناجيل عما هي عليه في القرآن، فوفق الأناجيل كان زكرياء يتمنى أن يرزقه الله ولداً، يخلفه في خدمة الهيكل، فجاءه ملك الرب وبشره بغلام يكون عظيماً في أعين الناس وأمام الله، ولما جاء دوره في حرق البخور في الهيكل وقف ملاك الرب جبريل أمامه، وبشره بأن زوجته ستلد له ولداً، لن يشرب خمراً ولا مسكراً[3]، ويمتلئ بالروح القدس، وهو في بطن أمه، وعليه أن يسميه يوحنا، فكانت البشرى مثيرة للاستغراب، فتساءل زكرياء: كيف يكون هذا وأنا شيخ كبير، وامرأتي طاعنة في السن؟، فأجابه الملك: أنا أبشرك بهذه البشرى، وستصاب بالخرس إلى أن يحدث ذلك إلى اليوم الثامن من ميلاد يوحنا، لأنك لم تصدق كلامي"[4]، وتختلف رواية الإنجيل عن القصة القرآنية للحدث نفسه، فقد أشار القرآن إلى أن مدة انحباس زكرياء عن الكلام كانت ثلاثة أيام، على حين امتدت هذه المدة في الأناجيل إلى أكثر من تسعة أشهر.

وتشير الأناجيل إلى أن دعوة يوحنا تمثلت في دعوته الناس إلى المعمودية للتوبة وغفران الخطايا، وقد كان الناس يعمّدون في نهر الأردن قائلاً: "كل شجرة لا تثمر طيباً تقطع وتلقى في النار"[5]، ولما سئل: إن كان هو المسيح أجاب بقوله: "أنا أعمدكم في الماء، أما المسيح الآتي فيعمدكم بالروح القدس والنار، وأنا لست أهلاً لأن أحل سير نعله"[6]، ومع ذلك تعمّد السيد المسيح على يده، وعنه أخذ المعمودية.

1- سورة آل عمران، الآيات 38- 41.

2- "التوحيد والتثليث في حوار المسيحية والإسلام"، محمد عبد الحميد العبد، دار الطليعة الجديدة، دمشق، الطبعة الأولى، 2003م، ص 52.

3- يعد عدم شرب الخمر والمسكرات وعدم قص شعر الرأس من شروط خدمة الهيكل.

4- لوقا 1:5 – 20.

5- لوقا 9:3.

6- لوقا 1:3 – 10.

بعد البشرى التي تلقاها زكرياء بميلاد يحيى عليه السلام ينتقل القرآن إلى الاصطفاء الثاني الذي تميز به آل عمران، إنه اصطفاء مريم من بين نساء العائلة، بل من بين نساء العالمين، وهي الإشارة القرآنية التي تغيب في مجموع الأناجيل الأربعة، إذ لم يشر واحد منها إلى ما تحظى به هذه السيدة من نبل أخلاق وصبر على العبادة، تجعلها منزهة عن الوقوع في الفواحش التي لا ترتكبها العامة من النساء، ولا سيما العفيفات القانتات العابدات منهن، وكل ما نجده في هذه الأناجيل إشارة إلى رجل لا دور له في القصة، يُدعى يوسف النجار الذي تدَّعي الأناجيل أنه كان خطيباً لمريم، وكان صالحاً، فما أراد أن يكشف أمر حمل مريم، حتى من قبل أن يعلم من ملاك الرب أنها حبلى من الروح القدس[1]، واقتصر إنجيل لوقا على إيراد حوار ملاك الرب مع مريم من دون الحديث عن سيرة هذه السيدة قبل الحمل بالسيد المسيح عليه السلام [2].

والملاحظ أنه قلما تهتم التوراة والأناجيل بسير الأنبياء قبل النبوة، يقول العقاد: "ولكن غرائب التاريخ في أمر الأنبياء كثيرة، ومنها هذه الغريبة التي تكاد تشمل الأنبياء أجمعين، وهي الجهل التام بتفاصيل نشأتهم بين ذويهم وأقوامهم، فلا يحصي التاريخ شيئاً من هذه التفاصيل عن نشأة نبي من كبار الأنبياء غير محمد ﷺ، وكل من عداه من جلّ الأنبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط"[3].

ويحين موعد المواجهة ضد المَلَك الذي بشر مريم بالحمل، وهي بشرى سعيدة لمريم العذراء وابتلاء عظيم، سعيدة لأن اللّه أجرى معجزته بوساطتها وشرَّفها بالحمل بنبي من أعظم الأنبياء، وابتلاء عظيم لما تعلمه من قساوة قومها وفظاظتهم، تمنت حينها الموت بدل مواجهة هؤلاء القوم: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [4]، لكن اللّه قضى أمراً كان مفعولاً.

وتنزيهاً للسيدة مريم ودرءا لكل شبهة عنها كانت المعجزة، وتكلم السيد المسيح وهو في المهد مدافعا عن أمه ومبرئاً إياها من اتهامات قومها، وهو نبأ وحدث معجز تفرد به القرآن إذ لا ذكر لأولى معجزات السيد المسيح هذه في كتب المسيحيين، ولا في أناجيلهم

1- متى 1:19.

2- لوقا 1:26.

3- "العبقريات الإسلامية- مطلع النور"، عباس محمود العقاد، بيروت، الطبعة الثانية، 1968، ص 68.

4- سورة مريم، الآية 23.

المقدسة، قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (1).

وعناية من القرآن بشرف مريم وطهارتها نجده يذكرها في أماكن أخرى، جاعلاً منها مثالاً للمؤمنات، بل للمؤمنات والمؤمنين، واصفاً إياها بالعفاف: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (2).

ويقف القرآن مع نسب السيد المسيح وقفة واضحة نافياً عنه كل الشبهات، وذلك في إشارته إليه بابن مريم حصراً تأكيداً لميلاده المعجز من مريم العذراء، ولنفي خرافات المسيحيين بشأن نسب المسيح نجد القرآن يورد اسمه مقروناً بابن مريم في واحد وعشرين موضعاً من ثلاثة وعشرين موضعاً، وذكره بابن مريم مجرداً من عيسى في موضعين أثنين، فلا هو ابن الله، ولا هو ابن يوسف النجار، وإنما هو عبد الله ورسوله وابن أمته.

والمدهش أن الأناجيل الأربعة جميعها لا تعطي هذا الموضوع أهمية، فمع كتابتها عن ولادة عيسى من مريم العذراء نجدها تسميه ابن يوسف النجار، وعدّته من سلالة داوود عن طريق يوسف هذا، " لقد وصف كل من متى ولوقا الميلاد المعجز بطريقة مثيرة للريبة، إذ زادا الموضوع غموضاً وإبهاماً بإصرارهما على الإعلان أن عيسى كان من سلالة داوود، وهذا أوقعهما في تناقضات جسيمة، فمن جهة عدّا الميلاد المعجز دليلاً

1- سورة مريم، الآيات 29- 36.

2- سورة التحريم، الآيتان 11- 12.

على أن عيسى هو المسيح فعلاً، ومن جهة ثانية أرادا لنبوءات العهد القديم أن تتحقق، بحسب ظنهم، بأن المسيح يجب أن يكون من سلالة داوود!!، وليس مفهوماً كيف وافقت الكنيسة على عدّ هذه الكتابات قانونية، على حين أنها تتمسك بعقيدة الميلاد المعجز لعيسى وبالعذرية الدائمة لمريم؟!"[1]

والأدهى من ذلك كله والأمرّ بداية إنجيل متى التي تعطي نسب السيد المسيح وسلالته بدءاً من إبراهيمعليه السلام وانتهاء بقوله: "ويعقوب أنجب يوسف زوج مريم التي أنجبت عيسى المسيح"[2]، مع أنه يذكر مباشرة بعدها أن مريم وجدت نفسها حاملاً من الروح القدس[3]، "أما لوقا فليس أقل تناقضاً وتخبطاً من متى، فهو يذكر لنا ظهور الملك جبريل وإخباره مريم بحملها المرتقب من الروح القدس"[4]، ولكنه في الإصحاح الثالث يوضح سلالة عيسى الحقيقية بقوله: "كان عيسى على ما يظن ابن يوسف بن هالي"[5]، ويمضي لوقا في تفصيل نسب المسيح مروراً بداوود وانتهاء "بشيت ابن آدم ابن الله"[6]، أما كيف أصبح آدم ابن الله؟، وبأي معنى؟، فليس مفهوماً البتة.

والخلاصة أن متى ولوقا كتبا سلالتين لعيسى، أقل ما يقال عنهما إنهما غريبتان، عديمتا المعنى، سطحيتان خرافيتان، عدا أنهما مختلفتان عن بعضهما، على نحوٍ يستحيل التوفيق بينهما، عدّد متى ستة وعشرين جداً لعيسى من داوود إلى يوسف!، أما لوقا فعدّد واحداً وأربعين بين الاثنين!، وهذا أي يوسف، لم يكن سوى أب افتراضي"[7].

والعجب كل العجب في تعظيم أهل الكتاب لرسلهم، يعظمونهم بالافتراء عليهم وبوصفهم بأقبح الصفات، نكتفي منها بذكر ما وصف به السيد المسيحعليه السلام، فقد أقحم متى فيما سمّاه نسب السيد المسيح أربع نساء بلا مسوّغ، هن ثامار وراحاب وراعوث وبتشبع، **وكلهن من البغايا المذكورات في العهد القديم**، فثامار هي زوجة ابن يهوذا أخي يوسف، وهي من محارمه التي يذكر العهد القديم أنه زنا بها، فولدت له توءمين، هما زارح

1- "المسيحية والإسلام والإستشراق"، محمد فاروق الزين، مرجع سابق، ص 161- 162.

2- متى1:16.

3- متى1:18- 20.

4- لوقا 1:26- 37.

5- لوقا 3:23.

6- لوقا 3:38.

7- "المسيحية والإسلام والإستشراق"، محمد فاروق الزين، مرجع سابق، ص 162.

وفارص[1] اللذان جعلهما متى في شجرة نسب السيد المسيح، أما راحاب فهي امرأة زانية، جاء ذكرها في سفر يشوع[2]، ويحدثنا سفر راعوت[3] كيف قامت هذه بإغواء بوعز قبل الزواج به، أما بتشبع فهي زوجة أوريا الذي تخلص منه داوود بعدما زنا بها، ثم ولدت له ابناً هو سليمان من دون أن يتزوج بها[4]، وهي مصيبة من مصائب أهل الكتاب، يتهمون نبي الله داوود بالزنا، ويتهمون نبي الله سليمان بأنه ابن زنا، ويجعلون الكل في شجرة نسب نبي، لا نسب له أصلاً.

ولقصور عقول البشر وعدم استطاعتها إدراك مولد المسيح العجيب المعجز قدم القرآن مولد يحيى الذي كان هو أيضاً ميلاداً معجزاً، فولد بعد كبر ويأس من أبوين مسنين،كما ينبه الله ﷻ العقول الفطنة المتيقظة غير المعاندة ضارباً لها المثل عن مولد المسيح بقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[5]، فميلاد المسيح من غير أب ليس أكثر إعجازاً من خلق آدم من تراب.

ولم يفت القرآن أن ينبه، وهو يذكر لنا هذه الأحداث، على وحدانية الله ﷻ ونفي بنوة المسيح له ﷻ وإثبات عبوديته لله ﷻ، جاعلاً أول كلمة تلفظ بها المسيح عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾.[6]

لقد قدم القرآن بهذه الإحاطة التاريخية وبهذه السيرة الذاتية العطرة للسيدة مريم معلومات هامة عن البيئة التي كانت قبل ميلاد السيد المسيح، وعن المجتمع الذي عاش وتربى فيه عليه السلام، تلك البيئة التقية المليئة بالشخصيات الربانية، عمران وزوجته والدي مريم ونبي الله زكرياء كافل مريم وابنه يحيى عليه السلام، الذي كان بمنزلة تمهيد لمجيء المسيح ورسالته، ومع ذلك لم يتطرق القرآن إلى سيرته مفصلاً، وتلك عادة القرآن مع الأنبياء المعاصرين للرسل، فالحديث عن لوط عليه السلام مثلاً أو عن إسماعيل وإسحاق ليس بالإطناب

1- سفر التكوين15:38- 23.

2- سفر يشوع 1:2- 24.

3- سفر راعوث 3- 4.

4- سفر صمويل الثاني 24:12- 25.

5- سورة آل عمران، الآية 59.

6- سورة مريم، الآية 30.

الذي عليه الحديث عن إبراهيم عليه السلام، والحديث عن هارون عليه السلام ليس بالطول الذي في الحديث عن موسى عليه السلام.

إن عرض القرآن لهذه الشخصيات الدينية المختلفة كان ضرورياً، يدخل ضمن المنهج القرآني الشمولي في إثبات صحة دعوته وبيان التبديل الذي خضعت له الكتب السماوية، والعمل على تصحيحها بإيراده للقصص الحق، المنزهة عن الخطأ، والسليمة من إضافات البشر، والهدف منه تصحيح العقيدة النصرانية التي عرفت ردة مع النصارى.

لقد كان موقف القرآن كريماً بشأن النصارى، ذكر قصة حمل العذراء بالمسيح، وما كان فيها من معجزات، ونزه السيدة مريم البتول عن النقائص التي رماها بها اليهود والفرية التي حاولوا أن يلصقوها بها لحملها من دون زواج، وخصص لها سورة من السور الطوال في كتاب الله، وسماها باسمها تشريفاً لها، عليها السلام، ولتبقى هذه السورة شهادة تاريخية، بل أبدية في حقها.

المبحث الثاني

مهمة المسيح الرسالية

لا تختلف مهمة المسيح عليه السلام الرسالية عن غيره من الرسل الكرام الذين بعثهم الله لهداية البشر، فجميع الرسل أمة واحدة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (1)، لسانهم واحد، هدفهم واحد، ورسالتهم واحدة، هي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (2) "وفي أكثر من سورة من سور القرآن، وبخاصة سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء يأتي تسلسل مقصود لتاريخ الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم، كل رسول يقول الكلمة ذاتها، ويمضي، فيجيء الرسول الذي يأتي بعده، فيقول الكلمة ذاتها، حتى كأنهم رسول واحد على اختلاف الزمن واختلاف لغات الأقوام"(3)، ومن ثم لا يمكن أن يكون الاختلاف بين هذه الأمة الربانية، بل هي بناء واحد متكامل، كما شبهه النبي الكريم ﷺ، فقال: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة؟، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"(4).

وإذا كان الهدف والغاية من بعثة الرسل واحداً، فأسلوب كل واحد منهم ومنهجه يختلف باختلاف الأقوام ودرجات تفكيرهم وإدراكهم، والمنهج السماوي، كما يتضح ذلك من خلال رسالات الأنبياء، "راعى تطور العقل الإنساني، وساير ملكات تفكيره وعقليته، وتعامل معها على المستوى الذي كان لها من الوعي والإدراك، فكان في الرسالات الأولى منهج تلقائي، يلقن الإنسانية في طفولتها من مبادئ العقيدة، ثم دخل المنهج مدخلاً آخر، حيث تطورت الإنسانية، واتسعت مداركها بعض الشيء، فكانت الدعوة إلى الله التفات إلى الوجود المادي، ليستدل من النظام الممسك به على عظمة الخالق وقدرته"(5).

1- سورة الأنبياء، الآية 92.

2- سورة المؤمنون، الآية 32.

3- "لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة"، محمد قطب، الدار البيضاء- المكتبة السلفية، طبعة 1993م، ص 15.

4- مختصر صحيح البخاري، مرجع سابق، رقم الحديث:3342.

5- "قضية الألوهية بين الفلسفة والدين، الجزء الأول، الله ذاتاً وموضوعاً عبد الكريم الخطيب، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، 1963م، ص 315.

والرسالة الإلهية الخاصة بأهل الكتاب يهوداً ونصارى كانت ذات منهج وسط بين اعتماد المعجزة وسيلة للإخضاع، والدعوة إلى التفكير وسيلة للإقناع، فالوسط الكتابي كان وسطاً مرتبكاً حائراً متأثراً بكثير من الديانات والثقافات المحيطة به، فاليهود عاصروا على مدى وجودهم القبائل الوثنية من عبدة الأصنام والكواكب والظواهر الطبيعية، ويشير القرآن إلى ذلك إشارة بليغة في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾ [1]، والنصارى عاشوا بين الفلسفات الفارسية واليونانية، فتأثروا بكثير منها، لذلك نجد المعجزة المادية حاضرة بقوة عند موسى وعيسى، عليهما السلام، لأن عقل المخاطبين لا يقبل إلا ذلك، يقول الله ﷻ: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ [2] ويقول ﷻ: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [3].

يقول رشيد رضا: "وسؤالهم هذا يدل على أحد أمرين، إما أنهم لا يفهمون النبوة والرسالة على كثرة ما ظهر فيهم من الأنبياء والرسل، ولا يميزون الآيات الصحيحة التي يؤيد الله بها رسله و سائر الأمور المستغربة كحيل السحر والشعوذة لمخالفتها العادة، وإما أنهم معاندون يقترحون ما يقترحون تعجيزاً أو مراوغة"[4].

1- سورة الأعراف، الآية 138.

2- سورة النساء، الآية 153.

3- سورة المائدة، الآيات 111- 115.

4- "تفسير المنار" محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص 13.

وما اعترض المسيح عليه السلام في دعوته إلى عبادة الله لم يعترض نبياً من قبل، فقد ترك أتباعه عبادة الله وتحولوا إلى عبادته، مع أنه دعاهم إلى عبادة الله عز وجل، وكانت أول كلمة تلفظ بها، وهو في المهد، تؤكد دعوته هذه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ (1)، فكانت مهمته صعبة جداً، إذ تحولت المعجزات التي استعملها لإقناعهم إلى دليل على ألوهيته عليه السلام، لذلك ركز القرآن في مناظرته للنصارى على بيان بشرية المسيح وعبوديته لله عز وجل، ومن ثم إثبات خطأ عقيدة النصارى في المسيح، يقول عز وجل: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (2)، وأكد أن تأليههم للسيد المسيح هو ردة عرفتها عقيدة التوحيد مع النصارى مقلدين في ذلك قول من سبقهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (3).

والقول بألوهية السيد المسيح هو نتيجة لأثر فكر اليونانيين والفارسيين، فهؤلاء كانوا لا يتصورون أن يكون النبي بشراً مثلهم، بل لابد من أن يكون هو نفسه إلهاً أو ابن إله أو نصف إله، وينبني هذا الفكر الوثني على أسطورة الإله الابن المخلص الذي يموت تكفيراً عن خطايا البشرية، ثم يقوم من بين الأموات، إضافةً إلى الموروث اليهودي الذي ورثه النصارى بعدّهم يهودا في الأصل، فالنبوة في التوراة ترتبط بالمعجزة ارتباطا وثيقا، فهي الدليل على صدق النبوة، حتى إن النبي في الفكر اليهودي يجب عليه "قبل كل شيء أن يعرف الغيب، ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يبغضونهم، ولا يقدرون على قتالهم، وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك كثيراً، وهو تعريفهم بمكان المال الضائع أو الحيوان الضال"(4)، والكشف عن الغيب وهو من مهام النبي في الفكر اليهودي، هو الذي عبر عنه القرآن في قوله عز وجل: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (5).

1- سورة مريم، الآية 30.

2- سورة المائدة، الآية 75.

3- سورة التوبة، الآية 30.

4- "العبقريات الإسلامية" عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص63- 64.

5- سورة آل عمران، الآية 49.

لقد كانت دعوة المسيح كما بينها القرآن **دعوة تصحيحية إصلاحية** للأوضاع المتردية التي عرفها اليهود على المستوى الديني والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي، **أساسها شريعة التوراة الحقة**، إذ استغل الأحبار والربانيون مكانتهم الدينية من أجل تحقيق أطماع دنيوية فانية، بدلاً من نهي قومهم ودعوتهم إلى طريق الله القويم: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [1]، ويصف لنا القرآن تردي الأخلاق اليهودية في قوله ﷻ: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [2]، بل وصل بهم الأمر إلى تحريف كلام الله وتبديله من أجل الحصول على المال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [3]، لذلك تمثلت مهمة المسيح في بيان ما اختلف فيه بنو إسرائيل والرجوع بهم إلى أحكام التوراة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [4]، وتحليل بعض ما حرم عليهم بذنوبهم وظلمهم: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [5].

وحتى يثبت عيسى عليه السلام أنه المسيح الموعود به في التوراة أنعم الله عليه بنعم جمة، وأيده ﷻ بمعجزات كثيرة، وردت في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ

1- سورة المائدة، الآية 63.

2- سورة آل عمران، الآية75.

3- سورة آل عمران، الآية 187.

4- سورة الزخرف، الآية 63.

5- سورة آل عمران، الآية 50.

عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [1]، ومع كل ذلك رفض اليهود الإيمان به بدعوى أنه لا يتصف بالصفات التي جاء ذكرها في كتب العهد القديم، خاصة سفر إشعيا[2]، فالمسيح الوارد ذكره فيها يكون من نسل داوود، وسيقيم مملكته ثانية، وعيسى عليه السلام لم يكن ابن داوود، ولا بالجبروت الذي جاء وصفه به في هذا السفر، ما جعل اليهود، كما أشارت إلى ذلك الأناجيل، في شك من حقيقته عليه السلام، "وجاء عيد التجديد في أورشليم في الشتاء، وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان، فتجمع اليهود حوله، وقالوا له: إلى متى تبقينا حائرين؟، قل لنا بصراحة، هل أنت المسيح؟" .

لقد أظهر المسيح عليه السلام من المعجزات ما يكفي لصدق دعوته، لكن قلوب اليهود القاسية المتحجرة رفضت الإيمان به، وتمسكت بموروثها المزور الذي أغشى بصرها عن مشاهدة معجزاته الباهرة في سبيل الحفاظ على المناصب الدنيوية الزائلة.

إن ما يميز رسالة السيد المسيح عليه السلام إضافة إلى دعوته إلى التوحيد الخالص، **خصوصيتها ببني إسرائيل**، أي إن دعوة المسيح لم تكن تعني من الناس أحداً سوى بني إسرائيل، بدليل أن الخطاب الوارد في القرآن على لسان المسيح جاء بعبارة "يا بني إسرائيل"، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [3]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا

1- سورة المائدة، الآية 110.

2- لا يعني هذا أن عيسى بن مريم عليه السلام ليس هو المسيح كما ظنَّ اليهود، لأن الصفات الواردة في سفر إشعيا لا دليل على صحتها، بل لا دليل على صحة السفر برمته، ولا على نبوة إشعيا نفسه، ومادام القرآن أثبت أن عيسى ابن مريم عليه السلام هو المسيح، فما ورد فيه هو القول الصحيح الثابت، لأنه كتاب الله وكلامه الموثوق، وما سواه من النصوص لا دليل على صحتها.

3- سورة المائدة، الآية 72.

﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (1) "، والآية صريحة في دلالتها على بعثة عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل، ويلاحظ هنا أن عيسى عليه السلام قال: يا بني إسرائيل، ولم يقل لهم: يا قومي، كما قال موسى عليه السلام لهم: يا قومي، والسبب أن عيسى عليه السلام لا نسب له، ولا أب له فيهم فيكونون قومه"[2]، ولم يثبت أن المسيح دعا غير بني إسرائيل، وما يدعيه المسيحيون اليوم من أن المسيحية ديانة كاثوليكية، أي عالمية، فهو ادعاء باطل، لا أساس له من الصحة[3]، والنصوص الإنجيلية نفسها مع ما أصابها من تحريف وتبديل تنفي أن يكون المسيح دعا غير اليهود أو صرّح إنه مبعوث للعالمين، بل نص في عدة مناسبات أنه ما بعث إلا للخراف الضالة من بني إسرائيل، وورد في إنجيل متى قوله: "ما أرسلت إلا إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل"[4]، بل رفض دعوة غير بني إسرائيل برفضه إيمان المرأة الكنعانية[5]، ولما أوصى تلاميذه ليقوموا بالتبشير ألح عليهم أن يقتصروا في الدعوة على اليهود، وألا يدخلوا أرض السامرة[6]، وإن كانوا من فرق اليهود، ويبين لنا سفر أعمال الرسل[7] مقدار ثورة تلاميذ المسيح وشدة غضبهم، لما علموا أن بطرس دعا غير اليهود، وبشرهم بالإنجيل.

ومن مهام رسالة المسيح عليه السلام **التبشير بمجيء المصطفى ﷺ، وبأنه خاتم الرسل والأنبياء**: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (8)، شأنه في ذلك شأن موسى عليه السلام الذي بشر بالنبي محمد ﷺ في التوراة، يقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ

1- سورة الصف، الآية 6.

2- "موجز الأديان في القرآن" عبد الكريم زيدان،مرجع سابق، ص77.

3- يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى مقال يوسف الكلام:

Universalité des religions: le Christiansme est- il catholique ou pretention du catholicisme? Revue de demain, N 24, 14/10 Au 20/10/2000, pp. 6- 7

4- متى 15:24.

5- متى 15:21- 23.

6- متى 10:5.

7- أعمال الرسل 11:1- 3.

8- سورة الصف، الآية 6.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [1]، وإذا كان المسيحيون اليوم ينفون البشارة بخاتم الأنبياء في كتبهم، فمرد ذلك إلى الحقد الذي ملأ قلوبهم، لما انتزع الله منهم النبوة، وأعطاها للعرب، وقد دفع قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [2] علماء الإسلام إلى استخراج هذه البشارات بخصوص النبي ﷺ في كتب العهد القديم، وبرز على نحو كبير في هذا الباب المهتدون إلى الإسلام يهوداً ونصارى، وقد ذكر علي بن ربن الطبري في كتابه "الدين والدولة" نبوات أنبياء العهد القديم بمحمد ﷺ[3]، وذكر السموءل النصوص المشيرة إلى اسمه في التوراة، وكشف الحجاب عنها[4]، وقدم القرطبي أيضاً فصلاً في إثبات نبوته ﷺ، بإخبار الأنبياء قبله ووصفهم له في كتبهم.[5]

ولأن المجتمع اليهودي كان يسعى وراء الحياة الدنيا والانغماس في ملذاتها ونسيان الآخرة، **كان المسيح عليه السلام مقابل ذلك يدعو إلى الأخلاق العالية وإلى الزهد والرهبانية بمعناها الصحيح والعمل للآخرة**، فقد كان عليه السلام رحمة مهداة من الله تعالى للناس، يرأف بهم، ويحبهم، ويزكيهم، ويعلمهم، ويشفي مرضاهم، ويكفي أن الله ﷻ وصفه بالمبارك والزكي: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [6]، أما زهده عليه السلام، فهو تصريح

1- سورة الأعراف، الآية 157.

2- سورة الأعراف، الآية 157.

3- "الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ"، علي بن ربن الطبري، تحقيق وتقديم عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الرابعة، 1402هـ-1982م، ص137- 179، حيث ذكر نبوات إشعيا وميخا وحبقوق وصفنيا وزكريا وارميا وحزقيال ودانيال.

4- "إفحام اليهود وقصة إسلام السموءل ورؤياه النبي ﷺ"، السموءل بن يحيى المغربي، تحقيق ودراسة محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل- بيروت، مكتبة الزهراء - القاهرة، الطبعة الثالثة، 1410هـ- 1990م، ص 111- 120.

5- "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام"، القرطبي، تقديم وتحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ص263- 280.

6- سورة مريم، الآيات 30- 33.

عملي، يؤكد أن الدنيا جديرة بالاحتقار، وأن الإعراض عنها لا يوجب منقصة في الإنسان، كما هو دعوة لهم أيضاً إلى التوجه للعمل للآخرة والسعي نحوها[1]، "والرهبانية قد تكون ممدوحة إذا كانت مطابقة لروح الشريعة الإلهية وأحكامها، فقد جاء مدح الرهبان في القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[2]، وقد تكون مذمومة، وذلك إذا كانت مخالفة لروح الشريعة الإلهية، كتحريم الزواج للنساء والرجال، وإهمال كل المسؤوليات الاجتماعية، والانزواء عن الناس، يقول الله ﷻ: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[3]، والمسيح عليه السلام لم يكن راهباً بالمعنى الثاني، لأن ذلك يخالف فطرة الله تعالى وسنته في خلقه، وحاشا للمسيح أن يفعل ذلك، ما يعني أن المسيح عليه السلام لم يكن رافضاً للزواج رهبانية، وإنما كان بلا زوجة لقصر عمره وانشغاله المستمر في مسؤولية الدعوة والرسالة، والتي كانت تستدعي منه السفر والتجوال وعدم الاستقرار"[4]، ومما لا شك فيه أن المسيحيين الأوائل بمن فيهم التلاميذ الاثنا عشر جعلوا الزهد والرهبانية منهجاً لهم في الحياة، إلا أنهم لم يلتزموا بما ألزموه أنفسهم، فخسروا أنفسهم لما حمّلوها ما لا طاقة لها به بهذه البدعة، علماً أن الله تعالى لم يكتبها عليهم، وقد اتبعوا ما ابتدعه بولس مفسد الديانة المسيحية، فهو من دعا إلى الرهبانية وعدم الزواج، إذ لم يكن متزوجاً، يقول في رسالته إلى أهل كورنثوس: "على أني أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه يحسن بهم أن يبقوا مثلي"[5].

1- فقد ورد في إنجيل متى، وإن كانت الأقوال التي نسبت في الأناجيل إلى المسيح غير مؤكدة: "طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات"، إنجيل متى1:5، وقال المسيح للشاب الذي أراد أن يتبعه: "اذهب وبع كل ما تملك ووزع على الفقراء، فيكون لك كنز في السماوات، وتعالَ اتبعني" 21:19.

2- سورة المائدة، الآية 82.

3- سورة الحديد، الآية27.

4- "حياة السيد المسيح في القرآن الكريم"، السيد حسين نجيب محمد، مرجع سابق، ص 100- 101.

5- الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس8:7.

لقد كانت رسالة السيد المسيح ذات طبيعة خاصة، كما كانت مهمته فريدة وشاقة، برأه الله ﷻ من الفرية التي ألصقها بها أتباعه، لما ادعوا ألوهيته، فكان عليه السلام في غاية الأدب مع ربه، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ [1]، فالمسيح بريء مما نسب إليه، والأنبياء لا يجوز في حقهم ذلك الادعاء لقوله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [2]، **ودعوة المسيح كانت توحيدية[3] خالصة**، "ثم بدأ يتسرب إليها من العقائد المختلفة، وخاصة العقائد الوثنية في العالم الروماني، ما صبغها بالتثليث، ومن ثم أصبحت المسيحية التقليدية الشائعة هي مسيحية الثالوث المقدس، ومع ذلك فلا تزال هناك إلى اليوم طائفة هامة وقوية من بين الطوائف المسيحية المشهورة، هي طائفة "الموحدين" التي أصبحت ظاهرة في وقتنا الحالي في الولايات المتحدة الأمريكية، ويتلخص قول المسيحيين الموحدين في القول التالي: "لا إله إلا الله المسيح رسول الله"، أي إن المسيح إنسان فقط لا غير"[4].

1- سورة المائدة، الآيات 116- 120.

2- سورة آل عمران، الآية 79.

3- تؤكد بعض المصادر المسيحية هذه الحقيقة، فقد جاء في دائرة المعارف الأمريكية ما نصه: "لقد بدأت عقيدة التوحيد حركة لاهوتية بداية مبكرة جداً في التاريخ، وفي حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير منذ عشرات السنين، لقد اشتقت المسيحية من اليهودية، واليهودية صارمة في عقيدة التوحيد، إن الطريق الذي صار من أورشليم (مجمع تلاميذ المسيح الأوائل) إلى نيقية (حيث تقرر مساواة المسيح بالله في الجوهر والأزلية عام 325 م)، كان من النادر القول إنه كان طريقاً مستقيماً.
إن عقيدة التثليث التي أقرت في القرن الرابع الميلادي لم تظهر بدقة التعليم المسيحي الأول فيما يتعلق بطبيعة الله، بل لقد كانت على العكس من ذلك انحرافاً عن هذا التعليم، ولهذا فإنها تطورت ضد التوحيد الخالص، أو على الأقل يمكن القول إنها كانت معارضة لما هو ضد التثليث، كما لم يكن انتصارها كاملاً"، الجزء 27، ص 247.

4- "الله جل جلاله بين التثليث والتوحيد"، محمد أمين جبر، النهار للطبع والنشر والتوزيع، طبعة 1420هـ- 1999م، ص 119- 120.

المبحث الثالث

عداوة اليهود للمسيح وأمه، عليهما السلام

مما تطرقنا إليه في المباحث السابقة نلاحظ أن القرآن بين لنا الصورة الحقيقية لبني إسرائيل، فعرض بكثير من التفصيل لعقائدهم المنحرفة وأخلاقهم الفاسدة ومواقفهم السلبية التي لم يسلم منها نبي من الأنبياء والرسل الكرام.

ولم يكنْ موقفهم من المسيح عليه السلام وأمه غريباً عن موقفهم من باقي الأنبياء والرسل، فقد انقسم اليهود بشأن دعوة المسيح إلى قسمين:

- قسم آمن به، وصدقه، ونصره بكل إخلاص واجتهاد، وهم الأقلية، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [1].

- وقسم كفر به، وهم الأكثرية، ومع كل المعجزات التي أيده بها الله عز وجل وقفوا من دعوته موقفاً محارباً، فكذبوه، واتهموه بالسحر، وحاولوا قتله وصد الناس عن الإيمان به وعن اتباعه، وما ذلك إلا لحب الدنيا والمصالح الدنيوية والطمع في المال، وإلى ذلك يشير القرآن بقوله: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [2].

وكانت دعوة المسيح عليه السلام دعوة تصحيحية إصلاحية، هدفها تغيير حال اليهود إلى ما هو أحسن، ومحاربة ما تأصل فيهم من خلق رذيل كشغفهم بالمادة وإهمالهم للجانب الروحي، وقد توجّه بالنقد إلى أحبارهم وكتَبَتِهم لصدهم عن سبيل الله، وأكلهم للربا

1- سورة الصف، الآية 14.

2- سورة المائدة، الآية 110.

وأكلهم أموال الناس بالباطل، واستغلالهم لنفوذهم الديني لتحقيق تلك المصالح المادية، وقد نقلت الأناجيل تحذيرات السيد المسيح عليه السلام لحوارييه من معلمي الشريعة، فقد ورد في أعمال لوقا: "إياكم ومعلمي الشريعة، يرغبون في المشي بالثياب الطويلة، ويحبون التحيات في الساحات ومكان الصدارة في المجامع ومقاعد الشرف في الولائم، يأكلون بيوت الأرامل، وهم يظهرون أنهم يطيلون الصلاة، هؤلاء ينالون أشد العذاب"[1].

ولما رأى بنو إسرائيل أن المسيح لا يحقق أمانيهم الدنيوية التي كانوا ينتظرون تحقيقها على يد المسيح المنتظر، وإنما يتوعدهم بسوء العاقبة ما لم يرجعوا عما هم فيه، نصبوا له العداء،[2] وحاولوا أكثر من مرة أن يوقعوا بينه وبين الرومان، فسألوه عن دفع الجزية إلى القيصر، حتى يورطوه مع السلطة الحاكمة، وفعلاً تمكنوا من ذلك، وعمدوا إلى إقناع الحاكم الروماني بأن المسيح عليه السلام يحدث الفتنة، ويحرض الشعب على عدم دفع الجزية، ويدعي أنه ملك، "وقام الحضور كلهم وجاؤوا به إلى بيلاطس، وأخذوا يتهمونه فيقولون: وجدنا هذا الرجل يثير الفتنة في شعبنا، ويمنعه أن يدفع الجزية إلى القيصر، ويدعي أنه المسيح الملك"[3]، ومع أن بيلاطس الحاكم الروماني لم يقتنع بالتهم الموجهة إلى السيد المسيح، فقد استجاب لطلب اليهود، وأمر بصلب المسيح حتى لا يعطي فرصة لهؤلاء اليهود للثورة ضده، لكن الله جل جلاله نجى رسوله من كيدهم ومكرهم، يقول تعالى:

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

1- لوقا 20: 46- 47.

2- يمكن الرجوع إلى كتاب "كتاب الله في إعجازه يتجلى - وردود على أحدث الغارات المستهدفة إعجاز القرآن وحفظه في دراسات علمية مقارنة تثبت إعجاز القرآن التاريخي والبياني والتأثيري والعقدي،" غسان حمدون، السلسلة الإسلامية العلمية المقارنة 3، الطبعة الأولى 1422هـ-2002م، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ص 300- 301.

3- لوقا 23: 1- 2.

4- سورة آل عمران، الآيات 54- 57.

ولقد حاول اليهود في كتاباتهم تجاهل المسيح وسيرته معهم، فلا يذكرون عن ذلك إلا النزر القليل، ومع أن بعض أشهر مؤرخيهم وهو يوسيفوس الذي عايش العهد الأول للميلاد، ودوّن الكثير من الأحداث الواقعة في هذه المرحلة لم يشر إلى السيد المسيح إلا على نحوٍ عابر مع أن المواجهة بينه عليه السلام وبين اليهود كانت مواجهة عظيمة، يقول يوسيفوس: "وكان في هذا الوقت رجل حكيم اسمه يسوع، إن كان جائزاً أن يدعى إنساناً، وكان صانعاً عجائب كثيرة ومعلماً للذين أرادوا أن يتعلموا الحق، وكان له تلاميذ كثيرون من اليهود والأمم هو المسيح الذي اشتكى عليه رؤساؤنا وأكابر أمتنا وسلمه بيلاطس البنطي للصلب، ومع هذا كله الذين تبعوه من البداءة لم يتركوه، وقد نظر إليه حياً ثلاثة أيام بعد صلبه، كما كان قد تنبأ بعض الأنبياء، وصنع معجزات أخرى كثيرة، ولم يزل إلى يومنا هذا بعض الناس يدعون الذين يعترفون به رئيساً لهم مسيحيين"(1).

ويحدثنا القرآن عن بداية العداوة بين اليهود والسيدة مريم أم المسيح، عليهما السلام، وذلك حين جاءت تحمل بين يديها السيد المسيح بعد أن حملت به من دون زوج ووضعته، فاتهموها في شرفها ورموها بالزنا، وهي الطاهرة العفيفة التي ولدت في خير أسرة، وتربت في كنف نبي الله زكريا، ونشأت على طاعة الله، وخدمت طول حياتها بيت الله، يقول الله تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾(2)، ومع أن المسيح عليه السلام تكلم في المهد، ليعلن براءة أمه من تهمة الزنى التي قذفها بها اليهود، لم يصدقوا كعادتهم، وبقوا مُصِّرين على نعتها بذلك.

وبقي حقد اليهود على المسيح وأمه دفيناً في قلوبهم إلى أن عبَّروا عن ذلك في كتابهم المسمى التلمود، خاصة بعدما رأوا الانتصار الذي حققه أتباع المسيح عليه السلام في العالم الروماني، فبعدما عدّوهم طائفة من الهراطقة المنشقين عنهم أصبحوا منافسين لهم في الدين.

1- "تاريخ يوسيفوس بن كريون اليهودي"، بيروت، المطبعة العلمية ليوسف إبراهيم صادر، المكتبة العمونية، ص 214.
2- سورة مريم، الآيات 27- 33.

وتعبيراً عن هذا الحقد نجد التلمود يصف المسيح وأمه والمسيحية كلها بأعيادها وشعائرها وكتبها وكنائسها بأقبح الصفات وأبشعها، ومن الأسماء التي يطلقها التلمود على السيد المسيح المجنون والساحر والوثني والكافر.

جاء في التلمود أن المسيح كان ساحراً ووثنياً، فينتج أن المسيحيين وثنيون أيضاً مثله.

ويقول التلمود: إن المسيح كان مجنوناً، وهذا مطابق لما كان يعامله به هيرودوس ومعاصروه الذين كانوا يصفونه بأنه ساحر ومتفق مع الشيطان.

ووصف التلمود المسيح بأنه "كافر لا يعرف الله"[1].

وجاء في التلمود الجديد: "إن تعاليم يسوع كفر وتلميذه يعقوب كافر، وإن الأناجيل كتب الكافرين".

وكتب موسى بن ميمون ما يأتي: "يلزم أن يقتل الإنسان بيده الكفرة، **مثل الناصري وأتباعه**، ويلقيهم في هاوية الهلاك"[2].

ويقول هينري ليبل: " يكنُّ اليهود الكره والاحتقار لشخص السيد المسيح، وقد رسخ هذا الحقد في فكر كل يهودي ضد ذات المسيح المقدسة على نحو جذري ومحسوس، ويحاول اليهود اليوم إخفاء مكرهم بالتقليل من إظهاره قدر ما يستطيعون، ويشكل هذا الحقد الدفين السمة الأكثر تميزاً لدى اليهود، وقبيل ظهور الديانة المسيحية أصيب اليهود بذعر وحقد شديدين، دفعاهما إلى الجنون، فما من يهودي واحد فوق هذه الأرض كان يريد أن يستعمل اسم السيد المسيح أو أن يلفظ اسمه صراحة أو يلقبه مباشرة، وإن اليهود كانوا ولا يزالون يلقبونه بابن الزانية المصلوب، تبرأت السيدة مريم العذراء من هذه الصفة، ولعن الله من يصفها والمسيح، عليهما أفضل الصلاة والسلام، بهذا الوصف الشنيع."[3].

ويقول البابا غريغوار التاسع: "يحتوي التلمود على أفظع أنواع السفالات والشتائم التي يوجهها اليهود ضد الحقيقة المسيحية وضد المسيح وأمه مريم العذراء البتول"[4].

1- "الكنز المرصود في قواعد التلمود"، ترجمة يوسف نصر الله، مرجع سابق، ص 105.

2- المرجع نفسه، ص 106.

3- "الخديعة الكبرى، هل اليهود حق شعب الله المختار؟"، محمد جمال طحان، دار صفحات- دمشق، الطبعة الأولى، 2007م، ص 146.

4- المرجع نفسه، ص 149.

ولقد صدق القرآن حين وصف اليهود بالكفر لما أساؤوا إلى السيد المسيح وأمه، عليهما السلام:﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1).

فالقرآن كرَّم المسيح وأمه، عليهما السلام، وقدَّم عنهما معنىً راقياً، فالسيدة مريم تعدّ عند المسلمين من النساء اللواتي قل نظيرهن عبر التاريخ، فهي أفضل نساء العالمين، وهي المرأة العابدة الراكعة الساجدة، وهي الصديقة العذراء البتول المحصنة المباركة، وأم نبي كريم من أولي العزم، حملت به بمعجزة، ووضعت به بمعجزة.

ويكفيها عظمة وجلالة أن الله تعالى قد ذكرها في القرآن في أربع وثلاثين موضعاً بكل إجلال وتقديس، بل لم يذكر ﷻ في كتابه امرأة باسمها الصريح سواها، وكفاها فخراً أن يدخل ذكرها في عداد المصطفين من آل عمران، وقد صدق الله العظيم حين وصفها بقوله:﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ (2).

و"لقد ذهب الإسلام بعيسى مذهباً وسطاً، فلم يؤلهه، ولم يجعله فوق البشر، بل هو إنسان رسول الله، وآخر الأنبياء قبل محمد ﷺ، ومن أولي العزم من الرسل، وفي الوقت نفسه لم يذهب الإسلام مذهب اليهود الذين حاربوا دعوته، وشجعوا الرومان على قتله، وذهبوا إلى أن أمه زانية، حاشاها، عليها السلام، وعيسى رجل ملحد، حاشاه عليه السلام" (3).

1- سورة النساء، الآيات 156- 158.

2- سورة المائدة، الآية 75.

3- "كتاب الله في إعجازه يتجلى"، غسان حمدون، مرجع سابق، ص 309..

الفصل الثاني

إبطال عقائد النصارى في المسيح

المبحث الأول

إبطال ألوهية المسيح

أبطل القرآن ألوهية المسيح وبنوته لله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فهو في ميزان القرآن لا يعدو أن يكون واحداً من الرسل الذين أرسلهم الله هداية للبشر، وما هؤلاء الرسل إلا بشر كسائر البشر، يتصفون بصفات البشرية كالأكل والشرب والنوم والعمل من أجل كسب الرزق، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ [(1)]، وما أثبته الله ﷻ لهؤلاء الرسل أثبته للمسيح وأمه، عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٤ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [(2)]، فنفى القرآن بالدليل القاطع ألوهية المسيح، لأن الأكل صفة من صفات النقص، فهو بحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بإله، لأنه لو كان إلهاً لكان قادراً على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه فكيف يعقل أن يكون إلهاً للعالمين؟، "ومن البين الواضح أن الذي يأكل الطعام فيتحول في جسمه دماً ولحماً وعظاماً، وينضح عرقاً، ويخرج فضلة لو بقيت في الجسم لأضرته، من الواضح أن كائناً من هذا النمط لا يمكن أن يكون إلا بشراً خاضعاً لكل قوانين البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مرتبته رسولاً"[(3)].

وقد شبه الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام في خلقه بآدم عليه السلام، وأنه خلقه بكلمة كن فكان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن

1- سورة الفرقان، الآية 20.

2- سورة المائدة، الآيات 73- 75.

3- "التفكير الفلسفي في الإسلام" ،عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 85.

﴿ فَيَكُونُ ﴾ [1]، ووجه الشبه هو أصل الخلقة لكل منهما وهي التراب، يقول الفخر الرازي:"إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من تراب، ولم يكن إلهاً، فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟، بل هذا أقرب إلى العقل، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس"[2]، وفي هذا الدليل الذي يسوقه القرآن رد على كل من النصارى واليهود، فكلاهما يعترف بأن آدم خلقه الله من دون أب وأم، فأمره إذاً أعجب وأغرب من أمر عيسى الذي خلق من مريم العذراء، ومن ثم لم يكن هناك داع لليهود في الإسراف في عنادهم والانتقاص من شأن السيدة مريم العذراء واتهامها بالزنى، ولم يكن للنصارى داع في الغلو في شأن عيسى عليه السلام وجعله إلهاً.

ويستمر القرآن في نفي ألوهية المسيح التي يدعيها الغلاة وتأكيد عبوديته للحق سبحانه وتعالى في أكثر من موضع، حيث ذكر أنه عبد كسائر العبيد، أنعم الله عليه بأن جعله آية ومثلاً لأصحاب القلوب الغليظة، قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [3]، وقال تعالى على لسان المسيح عليه السلام نفسه:﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [4]، فأثبت له الحق سبحانه مجموعة من الصفات البشرية كالولادة والحياة والموت والبعث، فلا مجال للمراء في شأنه أو الاختلاف في طبيعته، بل إن عيسى عليه السلام ذاته لن يأنف أن يكون عبداً لله سبحانه وتعالى مستمراً في عبادته وطاعته له عز وجل، حسبما هي وظيفة العبودية، قال تعالى:﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [5].

1- سورة آل عمران، الآية 59.

2- "التفسير الكبير" الفخر الرازي، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 82.

3- سورة الزخرف، الآية 59.

4- سورة مريم، الآيات 30- 35.

5- سورة النساء، الآية 172.

وفي السياق نفسه أكد الحق ﷻ أن صفة النبوة تتنافى والدعوة إلى عبادة غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [1].

ولتبرئة المسيح عليه السلام ينص كتاب الله على أن المسيح لم يدَّعِ يوماً أنه إله أو ابن إله، وما دعا يوماً أحداً إلى تأليهه، ويسوق القرآن لأجل ذلك حواراً في غاية البيان والوضوح بين الله والسيد المسيح ناقلاً إلينا بذلك مشهداً من مشاهد يوم القيامة المروعة، حيث يتساوى كل البشر عند الحساب أمام الواحد الأحد، ويقف المسيح عليه السلام موقف المحاسبة أمام الحق سبحانه وتعالى يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2].

وإثباتاً لبشرية المسيح وتأكيداً لها لا يرد اسمه عليه السلام في القرآن إلا مقروناً بابن مريم، ولا يرد منفرداً في أي مكان إلا ومعه قرينة دالة على بشريته عليه السلام كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [3]، ولا يورد له القرآن معجزة إلا وقرنها بقوله بإذن الله، يقول تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [4]، ويسعى كتاب الله ﷻ من وراء ذلك إلى التأكيد

1- سورة آل عمران، الآية79.

2- سورة المائدة، الآيتان 116- 117.

3- سورة المائدة، الآية 72.

4- سورة آل عمران، الآية 49.

لكل قارئ، مسيحياً كان أو غير مسيحي أن دعوى ألوهية المسيح دعوى باطلة، لا تستند إلى أي دليل عقلي أو نقلي، يقول الحق سبحانه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [1].

والمتدبر للنصوص الإنجيلية الحالية، مع ما اعتراها من تحريف وتزوير، لا يجد فيها نصاً واضح الدلالة على ألوهية المسيح، وذلك بشهادة المسيحيين أنفسهم، وقد عدّ العالم المسيحي **شارل جنيبير** ادعاء بنوة المسيح لله تعالى من السفه الديني، ونفى نفياً قاطعاً أن يكون المسيح قد ادعى ذلك، يقول: "**النتيجة المؤكدة لدراسة الباحثين هي أن عيسى لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر**، ولم يقل عن نفسه إنه "ابن الله"، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل سوى خطأ لغوي فاحش، وضرب من ضروب السفه في الدين"[2]، ويقول الكاتب أميل لودفيج في كتابه " ابن الإنسان": " لم يفكر يسوع في أنه أكثر من نبي، وليس بقليل أن يرى نفسه في بعض الأحيان دون النبي، ولم يحدث قطّ من يسوع ما يخيل به إلى السامع أن له خواطر وآمالاً فوق خواطر البشر وآمالهم، وما كان يسوع ليذهب إلى أبعد من ذلك، فإذا ما قال الناس عنه: إنه أحد الأنبياء راقه ذلك، موجهاً أفكارهم إلى ملكوت السماوات، والآن يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه إنه "ابن الإنسان"[3].

بل أكثر من ذلك نجد نصوصاً تدل على بشرية المسيح عليه السلام وعبوديته لله تعالى، أوردها كثير من علماء الإسلام في ردودهم على العقائد المسيحية، ويكفي أن المسيح في الأناجيل وأسفار العهد الجديد، قد حرص في أحاديثه مع الناس على أن يدعو نفسه باسم "ابن الإنسان"، ويتكرر هذا الوصف على لسانه في كل الأناجيل، ومن هذه النصوص:

- " .. فأجابه يسوع:"للثعالب أوكار، ولطيور السماء أعشاش، وأما ابن الإنسان فلا يجد أين يسند رأسه"[4].

- ومنها: "هكذا ابن الإنسان، جاء لا ليخدمه الناس، بل ليخدمهم، ويفدي بحياته كثيراً منهم"[5].

1- سورة المؤمنون، الآية 91.

2- "المسيحية نشأتها وتطورها "، شارل جنيبير، مرجع سابق، ص 150.

3- "موقف ابن تيمية من النصرانية"، مريم عبد الرحمن عبد الله، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1418هـ-1997م، الجزء الأول، ص 302- 303.

4- متى:8: 20.

5- متى20: 28.

- ومثله: "وتظهر في ذلك الحين علامة ابن الإنسان في السماء، فتنتحب جميع قبائل الأرض، ويرى الناس ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء في كل عزة وجلال"[1].

- ومنها أيضاً: "الله جعل السبت للإنسان، وما جعل لإنسان السبت، فابن الإنسان سيد السبت أيضاً"[2].

- وكذلك: "وبينما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع ألاّ يخبروا أحداً بما رأوا إلا متى قام ابن الإنسان من بين الأموات"[3].

وفي الأناجيل الأربعة ثمانية وسبعون موضعاً، يستخدم فيها يسوع المسيح عبارة "ابن الإنسان" تعبيراً عن نفسه، وهي تدل على الإنسانية الخالصة، بل إن المسيح لم يصف نفسه بأنه صالح، فضلاً على أن يكون إلهاً، وأنكر على من وصفه بذلك قائلاً له:"لا تدعوني صالحاً، فليس أحد صالحاً إلا واحداً وهو الله."[4]

فبشرية المسيح حقيقة ثابتة بالقرآن، شأنه في ذلك شأن بقية المرسلين، بل ثابتة فيما روته الأناجيل الأربعة على لسان المسيح من كلمات.

وقد عدّ القرآن نسبة الألوهية للسيد المسيح غلواً وتجاوزاً معيباً غير مقبول في الدين وافتراء مصيره الضلال والتضليل، يقول الحق تعالى:﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[5].

وكان القرآن مدركاً للاختلافات العقدية بشأن شخص المسيح بين مختلف الفرق النصرانية، فتجده في كل مرة يرد قول فرقة معينة، فرد قول فرقة **الملكانية التي تعتقد أن الله ثالوث** في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ

1- متى24: 30.

2- مرقس 2: 27- 28.

3- مرقس 9: 9. وهناك نصوص كثيرة نذكر منها ما جاء في مرقس 45/10، 14/14، وما جاء في لوقا 44/9، 56/9، ومنها ما جاء على لسان المسيح في يوحنا: 51/1، 14/3، 13/3، 27/5، 27/6...

4- مرقس 10: 17- 18.

5- سورة المائدة، الآيتان 76- 77.

﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [1]، وفي مكان آخر رد ادعاء اليعقوبية التي تعتقد أن الله هو المسيح نفسه قائلاً: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2]، وفي قوله: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [3] نفي للألوهية التي تدعيها النسطورية لمريم عليها السلام باعتقادها أماً للإله **Theotekos**.

وعدّ القرآن قول النصارى ببنوة المسيح ردة في عقيدة التوحيد، وجعلها مماثلة لعقائد الكفار قديماً، وهذه لفتة إعجازية من القرآن، تبين عمق الجذور التاريخية لتأليه البشر في الفكر الإنساني وتأثيرها في الديانة النصرانية[4]، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [5]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [6].

1- سورة المائدة، الآية 73.

2- سورة المائدة، الآية 17.

3- سورة المائدة، الآية 75.

4- هذا سبق للقرآن قبل أربعة عشر قرناً في إثبات هذه الحقيقة التي توصل إليها العلماء بعد ذلك، فقد أثبت علماء مقارنة الأديان والدراسات النصرانية التشابه بين ديانات الشعوب وعقائدها: البوذية والهندية والفارسية، والعبادات الشرقية عموماً التي زحفت إلى الإمبراطورية الرومانية، ما يؤكد أن النصرانية المحرفة تأثرت في وضع معتقداتها وشعائرها بتلك الشعوب، يقول شارل جنيبير:"إنه إن تعذر إرجاع كل لون من ألوان الشعائر المسيحية إلى الأصل الوثني الذي نبع منه، **إلا أنه لا مجال للشك في أن الروح الوثنية في مظاهر العبادات العملية قد فرضت على المسيحية شيئاً فشيئاً**". "المسيحية نشأتها وتطورها" شارل جنيبير، ص 160.

5- سورة التوبة، الآية 30.

6- سورة المائدة، الآية 77.

وختم القرآن مناظرته للنصارى بدعوتهم إلى المباهلة[1]، واضعاً بذلك حداً لكل ادعاء كاذب، تاركاً كلاً على معتقده بعدما بين للكل الحق من الباطل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2].

ثم حسم القرآن الأقوال الكثيرة في المسيح مؤكداً أن الرواية القرآنية بشأن المسيح هي الرواية الصحيحة، وأن القصص القرآني هو القصص الحق، وما سواه باطل: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [3]، مبدداً " كل شبهة حلقت في سماء فكرة الألوهية وثنية كانت تلك الفكرة أم كتابية، ثم خص فكرة الألوهية بسورة واضحة جلية سهلة موجزة، سمّاها سورة الإخلاص لتخليصها تلك الفكرة من شوائب كل باطل وضلال"[4]، بل إن القرآن قد جاء صريحاً في نفي البنوة مطلقاً عن الله تعالى، وأنها مستحيلة في حقه تعالى إذ يقول: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ

1- جاء في شأن المباهلة ما يلي:"قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم، **العاقب أمير القوم**، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، **والسيد، لهم ثمالهم** وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة، أحد بني بكر بن وائل، أسقفهم، وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم. قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة **فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر**، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ، **فقال دعوهم فصلوا إلى المشرق**، فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم من أمرهم، يقولون هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة، فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ: أسلما، قالا: قد أسلمنا، قال: إنكما لم تسلما فأسلما، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال كذبتما يمنعكما من الإسلام **دعواكما لله ولد وعبادتكما للصليب وأكلكما للخنزير**، قالا: فمن أبوه يا محمد؟، فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلافهم في أمرهم كله صدراً من سورة آل عمران إلى **بضع وثمانين آية**، "الجواب الصحيح، الجزء الأول، ص 190- 193، سيرة ابن هشام الجزء الثاني، ص 158- 162.

2- سورة آل عمران، الآيات 59- 63.

3- سورة آل عمران، الآيتان 62- 63.

4- "التفكير الفلسفي.." عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص 88.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1]، ويقول ﷻ أيضاً: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [2]، يقول ابن كثير عند تفسيره لآية سورة البقرة: "اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن لله ولداً، فقال تعالى "سُبْحَٰنَهُۥ"، أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً، " بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ "، أي ليس الأمر، كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له، وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟، كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [4] وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [5]، فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له، ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟"[6].

1- سورة البقرة، الآيتان 116- 117.

2- سورة المؤمنون، الآيات 91- 92.

3- سورة الأنعام، الآية 101.

4- سورة مريم، الآيات 88- 94.

5- سورة الإخلاص.

6- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 111- 112.

المبحث الثاني

إبطال عقيدة التثليث

تقوم عقيدة التثليث على مغالطات كثيرة، منها مساواة الجزء بالكل، ومنافاة المسلّمات العقلية، وقد أدركت الكنيسة المسيحية عدم معقولية القول إن هناك إلهاً واحداً في ثالوث وثالوثاً في إله واحد، ومن ثم أعلنوا أن عقيدة التثليث سر غامض، وعلى الإنسان أن يؤمن بها إيماناً أعمى من دون أن يخضعها للمناقشة العقلية.

فهم يقرون بأنها فوق طاقة العقل البشري وفوق إدراكه، وأنه من الصعب محاولة فهم هذا الأمر بعقولهم القاصرة، وأن كل ما يمكنهم أيضاًحه عن كيفية وجود ذات الله في ثلاثة أقانيم هو أن كلاً من هذه الأقانيم ممتاز من الآخر في الأقنومية لا في الجوهر، فهم جوهر واحد، وطبيعة واحدة، وإله واحد، ولكل واحد منها صفات اللاهوت، وقد حاول علماؤهم وفلاسفتهم مراراً وتكراراً أيضاًح ثالوث الوحدانية هذا، فلم يفلحوا، لأن ذلك فوق طاقة عقولهم، وصرحوا بأنه سر من الأسرار الإلهية، يستحيل فهمه وإدراكه.

وجاء في كتاب قاموس الكتاب المقدس فيما يخص التعريف بالتثليث ما يلي:" في طبيعة هذا الإله الواحد تظهر ثلاث خواص أزلية، يعلنها الكتاب في صورة **شخصيات** (أقانيم) **متساوية**، ومعرفتنا بهذه الشخصية المثلثة الأقانيم ليست إلا حق سماوي أعلنه لنا الكتاب في العهد القديم **بطريقة غير واضحة المعالم**[1]، لكنه قدمه في العهد الجديد واضحا، ويمكن أن نلخص العقيدة في هذه الأفكار الست التالية:

1. الكتاب المقدس يقدم لنا ثلاث شخصيات يعدّها شخص الله.
2. هؤلاء الثلاثة يصفهم الكتاب بطريقة تجعلهم شخصيات متميزة الواحدة من الأخرى.
3. هذا التثليث في طبيعة الله ليس مؤقتاً أو ظاهرياً، بل أبدي وحقيقي.
4. هذا التثليث لا يعني ثلاثة آلهة، بل إن هذه الشخصيات الثلاث جوهر واحد .
5. الشخصيات الثلاث الآب والابن والروح القدس متساوية.

1- كيف تطرح "العقيدة" الصحيحة وهي الأساس في كل دين في كتاب إلهي وهو التوراة بطريقة غير واضحة؟!، وإذا كان الأمر كذلك كما يدعي قاموس الكتاب المقدس فعلى أي أساس كُلف وحوسب المؤمنون بالتوراة؟.

6. ليس هناك تناقض في هذه العقيدة، بل بالأحرى إنها تقدم لنا المفتاح لفهم باقي العقائد المسيحية.

ولقد كان يقين الكنيسة وإيمانها بلاهوت المسيح هو الدافع الحتمي لها، لتصوغ حقيقة التثليث في قالب يجعلها المحور الذي تدور حوله كل معرفة المسيحيين بالله في تلك البيئة اليهودية أو الوثنية وتقوم عليه.

والكلمة نفسها "التثليث أو الثالوث" لم ترد في الكتاب المقدس، ويظن أن أول من صاغها واخترعها واستعملها هو **ترتليان في القرن الثاني للميلاد**، ثم ظهر سبيليوس ببدعته في منتصف القرن الثالث، وحاول أن يفسر العقيدة بالقول: (إن التثليث ليس أمراً حقيقياً في الله، لكنه مجرد إعلان خارجي، فهو حادث مؤقت وليس أبدياً)، ثم ظهرت "بدعة" أريوس -كما يصفها أعداء أريوس- الذي نادى بأن الآب وحده هو الأزلي، بينما الابن والروح القدس مخلوقان متميزان من سائر الخليقة، وأخيراً ظهر إثناسيوس داحضاً هذه النظريات وواضعاً أساس العقيدة التي قبلها واعتمدها مجمع نيقية في عام 325م.

ولقد تبلور قانون الإيمان الإثناسيوسي على يد أغسطنيوس في القرن الخامس، وصار القانون عقيدة الكنيسة الفعلية منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا."[1]

والغريب في الأمر أن هذه العقيدة لم يَدْعُ إليها المسيح في أي إنجيل من أناجيلهم الأربعة المعتمدة، ولا في غيرها، بل حتى عبارة "ثلاثة يشهدون في السماء" جرى حذفها من إنجيل يوحنا باتفاق مع جميع الكنائس، وعدت **عبارة مدسوسة**، فالمسيح ذاته لم يذكر إطلاقاً هذا الثالوث الأقدس الذي يؤمن به النصارى، وما عرف ولا قال إطلاقاً إن هناك ثلاثة أشخاص آلهة في الثالوث الأقدس، ولم يختلف تصوره عن الله قط عن نظرة أنبياء بني إسرائيل السابقين الذين بشروا دائماً بأن الله واحد، ولن يكون ثلاثة، وقد ردد المسيح فقط قول موسى عليه السلام حين قال:"...فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى"[2]، ولم يكن المسيح إلا مؤمناً بالإله الواحد، كما هو ظاهر من أقواله الكثيرة: "مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد"[3]،

1- "قاموس الكتاب المقدس" جورج بوست، المطبعة الأمريكانية- بيروت، 1901م، ص 232.

2- مرقس 29 : 12.

3- متى 10 : 4.

"أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟، فقال له: لا تدعوني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحداً وهو الله"[1].

ويزعم النصارى أن عقيدة التثليث قد لمح إليها العهد القديم، ثم ظهرت جلية في العهد الجديد، وما ذلك في الحقيقة إلا ليٌّ لأعناق النصوص، ليُحمِّلوها ما لا تحتمل من المعاني، لأن كثيراً من النصوص في العهد القديم والعهد الجديد تنص صراحةً على الوحدانية ونفي المماثلة[2].

فإذا كانت صفة التثليث صفة لله حقيقة وقد أثبتها لنفسه، فلماذا لم تذكر بصراحة ووضوح في العهد القديم، ولو من دون تفصيل، كما ذكرت سائر الصفات؟، وهل كان الأنبياء السابقون لا يعرفونها؟ أو عرفوها وكتموها؟، فإن كانوا لا يعرفونها فكيف تخفى عليهم وفيهم إبراهيم ويعقوب وموسى وسليمان الحكيم ثم تظهر لبولس؟، وإن كانوا يعرفونها، فلم لم يخبروا قومهم بصراحة، ولو من دون التعرض للنزول والحلول في الجسد ونحو ذلك مما فيه تفصيل؟، وما الحكمة من كتمانها وعدم ذكرها في الأسفار، مع أنها هامة جداً، لأنها تتعلق بذات الله، وسوف تبنى عليها عقائد؟.

"لو كان التثليث حقاً لكان من الواجب على موسى عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل أن يبينوه حق التبيين، فالعجب كل العجب أن تكون الشريعة الموسوية التي كانت واجبة الإطاعة لجميع الأنبياء إلى عهد عيسى عليه السلام خالية من بيان هذه العقيدة التي هي مدار النجاة على زعم أهل التثليث، ولا يمكن نجاة أحد من دونها، نبياً كان أم غير نبي، ولا يبين موسى ولا نبي من الأنبياء الإسرائيليين هذه العقيدة ببيان واضح، حيث تفهم منه هذه العقيدة صراحة، ولا يبقى شك ما، ويبين موسى عليه السلام الأحكام التي هي عند مُقَدّس أهل التثليث ضعيفة ناقصة جداً بالتشريح التام، ويكررها مرة بعد مرة وكرة بعد أخرى، ويلحّ على محافظتها إلحاحاً بليغاً، ويوجب القتل على ترك بعضها.

وأعجب منه أن عيسى عليه السلام أيضاً ما بين هذه العقيدة إلى عروجه ببيان واضح مثلاً بأن يقول: إن الله ثلاثة أقانيم الآب والابن وروح القدس، وأقنوم الآب تعلق بجسمي

1- متى 19: 16- 17.

2- ومن تلك النصوص ما يلي: تثنية 6: 4:" اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد"، تثنية 32: 3:"انظروا الآن، أنا هو ولا إله يقف أمامي، أميت وأحيي وأجرح وأشفي.."، تثنية 26: 33:" لا إله كإلهكم يا بني إسرائيل يأتي على مركبة السماوات لنصرتكم، وفي عظمته على الغيوم.."، صموئيل الثاني 7: 22:"فما أعظمك أيها الرب الإله، أنت لا مثيل لك ولا إله سواك"، الملوك الأول 8: 60:"لتعلم جميع شعوب الأرض أن الرب هو الإله ولا أحد سواه".

بعلاقة فلانية، أو بعلاقة فهمها خارج عن إدراك عقولكم، فاعلموا أني أنا الله لا غير، لأجل العلاقة المذكورة، أو يقول كلاماً آخر مثله في إفادة هذا المعنى صراحة، وليس في أيدي أهل التثليث من أقواله إلا بعض الأقوال المتشابهة"[1].

لقد صاغ المسيحيون عقيدة التثليث بعد رحيل المسيح، بنحو ثلاثمئة سنة، وذلك عام 325م، بناء على مجمع نيقية المسكوني للأساقفة الذي قرر دستور الإيمان المسيحي القائل:" يسوع المسيح هو ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنَّس، وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث"[2].

والأناجيل المعتمدة الأربعة التي دونت ما بين عام 70م وعام 115م لا تحتوي أي إشارة إلى هذا الثالوث بهذا المعنى الذي يؤمن به النصارى، وحتى بولس الذي جلب الآراء الغريبة إلى المسيحية لا علم له بالثالوث الأقدس بهذا المعنى.

وتصرح **الموسوعة الكاثوليكية بأن عقيدة التثليث لم تكن معروفة لدى المسيحيين الأوائل**، وأنها تشكلت في نهاية الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي، وهذا ما تؤكده أيضاً دائرة المعارف الفرنسية لاروس للقرن التاسع عشر.

وهكذا فإن عقيدة التثليث لم تكن من تعاليم المسيح، ولم تكن في أي موضع من الكتاب المقدس سواء العهد القديم أم العهد الجديد، وإنها بكل تأكيد غريبة عن عقلية المسيحيين الأوائل بدليل اختلاف المسيحيين فيها وظهور بعض الفرق المسيحية التي تنكرها مثل الأريوسية وأتباع بولس الشمشماطي وأتباع مقدونيوس[3]، لكن بمساندة من قسطنطين صارت جزءاً من الإيمان المسيحي نحو القرن الرابع.

1- "إظهار الحق"، رحمة الله الهندي، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص 720- 721.

2- "سوسنة سليمان في العقائد والأديان"، نوفل أفندي نوفل، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1922م، ص 137.

3- ذكر ابن حزم في كتابه «الفصل» هذه الفرق وسمّاها الفرق المسيحية الموحدة، يقول:"والنصارى فرق منهم أريوس، وكان قسيساً بالاسكندرية، ومن قوله: التوحيد المجرد، وإن عيسى ﷺ عبد مخلوق، وإنه كلمة الله تعالى التي خلق بها السماوات والأرض، ومنهم بولس الشمشماطي، وكان بطريركاً قبل ظهور النصرانية، وكان قوله: التوحيد المجرد الصحيح، وإن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله تعالى في بطن مريم من غير ذكر، وإنه إنسان لا إلهية فيه البتة، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس؟، وكان منهم أصحاب مقدونيوس، وكان بطريركاً في القسطنطينية، وكان من قول مقدونيوس هذا: التوحيد المجرد وإن عيسى ﷺ عبد مخلوق إنسان نبي، رسول الله كسائر الأنبياء عليهم السلام، وإن عيسى هو روح القدس، وكلمة الله ﷻ،وإن روح القدس والكلمة مخلوقان، "الفصل..."، ابن حزم، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 109- 110.

إن المسيحية قد انزلقت إلى تأليه البشر، لكن القرآن لم يؤيد هذه الافتراءات حتى يحرر العقل من الأساطير والأوهام، فدعا إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، ونزهه عن النظير والشبيه، ووصف الله ﷻ بعدة صفات، تؤكد تفرده ﷻ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ونفى تعدد الآلهة، قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [1]، وقد أبطل القرآن عقيدة التثليث في العديد من آياته كقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [2]، يقول الرازي عند تفسيره لهذه الآية:" المعنى ولا تقولوا، والخطاب للنصارى، إن الله سبحانه واحد بالجوهر ثلاثة بالأقانيم، أو لا تقولوا آلهتنا ثلاثة، **واعلم أن مذهب النصارى مجهول جدا**، والذي يتحصل منه أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاث، إلا أنهم وإن سمّوها صفات فهي في **الحقيقة ذوات**، بدليل أنهم يجوزون عليها الحلول في عيسى وفي مريم بأنفسها، وإلا لما جوزوا عليها أن تحل في غير ذلك، وأن تفارق غيره مرة أخرى، فهم وإن كانوا يسمّونها الصفات إلا أنهم في الحقيقة يثبتون **ذوات متعددة، قائمة بأنفسها**، وذلك محض الكفر، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾، ثم أكد التوحيد بقوله:﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، ثم نزه نفسه عن الولد بقوله:﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾، أي سبحانه ما يكون له ولد، ثم قال تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، واعلم أنه سبحانه في كل موضع نزه نفسه عن الولد، فذكر سبحانه أنه ملك ومالك لما في السماوات والأرض، فقال في سورة مريم: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [3]، والمعنى: من كان مالكاً لكل السماوات والأرض، ولكل ما فيهما كان مالكاً لعيسى ولمريم، عليهما السلام، لأنهما كانا في السماوات والأرض، وما

1- سورة الأنبياء، الآية 22.

2- سورة النساء، الآية 171.

3- سورة مريم، الآية93.

كانا أعظم من غيرهما في الذات والصفات، وإذا كان مالكاً لما هو أعظم منهما فيكون مالكاً لهما من باب أولى، ثم قال: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾، والمعنى أن الله سبحانه كاف في تدبير المخلوقات، وفي حفظ المحدثات، فلا حاجة معه إلى القول بإثبات إله آخر، وهو إشارة إلى ما يذكره المتكلمون من أنه سبحانه لما كان عالماً بجميع المعلومات، قادراً على كل المقدورات، كان كافياً في الإلهية، ولو فرضنا إلهاً آخر معه لكان معطلاً، لا فائدة منه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلهاً"[1].

وقال الله تعالى أيضاً في إبطال عقيدة التثليث: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

يقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية: "وهذا قول فرق النصارى **من الملكية والنسطورية واليعقوبية**، لأنهم يقولون: أب وابن وروح القدس، إله واحد، ولا يقولون ثلاثة آلهة وهو معنى مذهبهم، **وإنما يمتنعون من العبارة وهي لازمة لهم**، وما كان هكذا صح أن يحكى بالعبارة اللازمة، وذلك أنهم يقولون: إن الابن إله، والأب إله، وروح القدس إله، فأكفرهم الله بقولهم هذا، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، أي إن الإله لا يتعدد، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾، أي يكفوا عن القول بالتثليث ليمسنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة"[3]، أما البيضاوي فيقول في تفسيره لقوله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾، أي أحد ثلاثة، وهو حكاية عما قاله النسطورية والملكانية، منهم القائلون بالأقانيم الثلاثة وما سبق قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، وما في الوجود ذات واجب مستحق للعبادة، من حيث إنه مبدأ جميع الموجودات، إلا إله واحد، موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة"[4]، وللشيخ محمد رشيد رضا في هذه الآية قول مثل ذلك، فقد جاء في تفسيره المنار: " أكد الله سبحانه وتعالى بالقسم

1- تفسير الفخر الرازي، مرجع سابق، المجلد السادس، الجزء: 11، ص 118- 119.

2- سورة المائدة، الآية 73.

3- "الجامع لأحكام القرآن"، أبو عبد الله الأنصاري القرطبي، الطبعة الخامسة، 1417هـ - 1996م، دار الكتب العلمية- بيروت، الجزء السادس، ص 161- 162.

4- تفسير البيضاوي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 277.

كفر الذين قالوا: إن الله الذي هو خالق السماوات والأرض، ثالث أقانيم ثلاثة، وهي الأب والابن والروح القدس، يقول الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [2].

فالأدلة القرآنية الدالة على تكفير من يعتقد بألوهية المسيح وكفر من يقول إن الله ثالث ثلاثة واضحة وصريحة، ولا يمكن تجاهلها، وكان على أصحاب هذه العقيدة ألا يلغوا عقولهم أمام دعوى الإيمان والتسليم، فالعقيدة التي لا تكون عن اقتناع وفهم لا تكون لها قيمتها الدينية، ولا يكون لها تأثيرها في حياة صاحبها، والدين الصحيح يوجه خطابه إلى الكيان الإنساني كله بعقله ووجدانه، فليس هو مجرد مشاعر ذاتية ينفعل بها وجدان المرء، ولكنه أيضاً حقائق معقولة يدركها فكره، وهكذا فإننا نجد الخطاب القرآني في أمر العقيدة يتوجه إلى عقول المؤمنين وقلوبهم، يتوجه إلى عقولهم بالإقناع والدليل، حيث يطالب المخالفين له بالبرهان على صحة عقائدهم: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [3]، ويندد بتقليدهم لآبائهم في تلك العقائد: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [4]، ويهيب بهم قائلاً: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [5]، ويتوج عرضه للعقائد التي يدعو الناس إلى الإيمان بها بقول الله لهم: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [6]، و: ﴿ إِنَّ فِى

1- - سورة المائدة، الآية 17.

2- - سورة المائدة، الآية 72.

3- سورة البقرة، الآية 111، سورة النمل، الآية 64.

4- سورة البقرة، الآية 170.

5- سورة سبأ، الآية 46.

6- سورة الرعد، الآية 4، سورة النحل، الآية 12، سورة الروم، الآية 24.

﴿ ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]، ولا يسمح بأن يكون الإيمان بعقائدهم وليد تسلط فكري: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[2]، ومع ذلك كله فإن خطاب الوجدان البشري له مكانه في القرآن الكريم، ليحرك المشاعر حتى تنفعل بهذه العقائد التي يقنع بها العقول والقلوب معاً، أما أن يأتي رجال الدين في النصرانية المحرفة ليبتدعوا عقيدة التثليث بكل ما تتضمنه من محالات، ونقائض عقلية، ويطالبوا الناس، مع تسليمهم باستحالة فهمها، بالإيمان بها من دون محاولة لتعقلها، فذلك مسلك لا يتفق مع الدين ولا مع المنطق السليم.

1- سورة الرعد، الآية3، سورة النحل، الآيتان: 11، 69، سورة الروم، الآية 21، سورة الزمر، الآية 42، سورة الجاثية، الآية 13.

2- سورة البقرة، الآية256.

المبحث الثالث

إبطال عقيدة الصلب والفداء

كان موضوع صلب المسيح من المواضيع الهامة التي دار الجدل فيها بين القرآن وأهل الكتاب، فهؤلاء يهوداً ونصارى اعتقدوا أن المسيح عليه السلام مات مصلوباً، فاليهود كونهم أعداء المسيح الذين تآمروا على قتله وكادوا له عند ملك الرومان اعتقدوا أنهم نالوا منه بقتله على الصليب، وأنه استحق ذلك، إذ لم يكن في نظرهم المسيح الموعود الذي تحكي عنه التوراة[1]، أما النصارى فآمنوا به، لكنهم اعتقدوا أن صلبه كان ضرورياً ومقصوداً، بدليل ما يروونه في أناجيلهم من كونه أنبأهم بأنه سيُصلب ويُدفن ويقوم من قبره في اليوم الثالث من صلبه، ويجلس عن يمين أبيه ليدين العباد[2].

وتمثل عقيدة الصلب مع عقيدة التثليث والتجسد الأسس العظمى التي يقوم عليها الاعتقاد والإيمان المسيحي، "ويكفي أن نعرف أن الصليب الذي يعتقد النصارى أن المسيح صُلب عليه أصبح رمزاً مقدساً عندهم، وهو رمز التثليث، وهو كذلك أكبر رمز لأكبر فاجعة، وقعت في تاريخ البشرية فيما يزعمون، وهو كذلك أساس الكنيسة وعماد الإنجيل ورمز الحياة الأبدية فيما يزعمون"[3].

ونظراً إلى اعتقاد النصارى بألوهية المسيح، وهو ما يتعارض مع صلبه لجؤوا إلى القول إن الصلب لم يمس الجانب الإلهي فيه، وإنما الجانب الإنساني فقط، أو وفق تعبيرهم لم يقع الصلب على اللاهوت، وإنما على الناسوت، وأضافوا أن المراد من ذلك هو التكفير عن خطايا البشرية، وبالأخص الخطيئة الأولى أو الخطيئة الأصلية التي ارتكبها أبو البشرية آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة المنهي عنها، فانتقلت خطيئته إلى بنيه، ويعتقد النصارى أن الخلاص لا يكون إلا بالإيمان بأن المسيح صُلب ومات على الصليب تكفيراً عن خطايا جميع البشرية.

فخطيئة آدم عليه السلام وزوجه لم تقتصر عليهما فقط كونهما مرتكبيها، بل امتدت إلى جميع نسلهما، فهي خطيئة في نظر المسيحيين، لم تغتفر إطلاقاً، وبقيت لاصقة بآدم

1- يمكن الرجوع إلى سفر إشعيا، الإصحاح 11، حيث وردت صفات المسيح المنتظر.

2- متى 25: 31- 46، يوحنا 5: 22.

3- "تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ، أسبابه ونتائجه"، بسمة أحمد جستنيه، دار القلم، الطبعة الأولى، 1420هـ-2000م، ص 360.

ﷺ وذريته من بعده، حتى جاء المسيح ﷺ، ومات على الصليب تكفيراً عن خطايا الجميع.

والقول بالخطيئة الأصلية وبالخلاص عن طريق الإيمان بالصلب والاعتقاد بأن صلب المسيح إنما كان فداء للبشر وتكفيرا لخطاياهم لم يقل به المسيح ﷺ إطلاقاً، ولم تكن واردة حتى عند مؤلفي الأناجيل الأربعة المعتمدة، **وإنما يعزوها الباحثون المسيحيون أنفسهم إلى بولس الرسول، فهو أول من فسر عملية الصلب المزعومة بأنها للفداء وتكفيراً للخطايا، وهو الذي ابتدع هذه العقيدة الباطلة، ودافع عنها في جميع رسائله،** جاء في رسالة رومة: "..ولكن الله برهن على محبته لنا بأن المسيح مات من أجلنا، ونحن بعد خاطئون، فمن الأولى الآن بعدما تبرأنا بدمه أن نخلص به من غضب الله، **والخطيئة دخلت في العالم بإنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، وسرى الموت إلى جميع البشر، لأنهم كلهم خطئوا."** [(1)].

وجاء في الرسالة نفسها: "..ونحن نعلم أن الإنسان القديم فينا صلب مع المسيح، حتى يزول سلطان الخطيئة في جسدنا، فلا نبقى عبيدا للخطيئة..."[(2)]

وجاء في رسالته إلى أهل غلاطية:"ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولداً تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني"[(3)].

وقد يطرح عن هذه الفكرة سؤال مهم وهو: من أين جاء بولس بهذه العقيدة؟، وكيف لاقت قبولاً لدى النصارى، وأصبحت بعد ذلك عماد النصرانية؟.

إن صلب المسيح كان نهاية مفزعة لأتباعه ومخيبة لآمالهم، فقد كانوا يرون فيه المخلص والمنقذ، ثم فجأة **يسمعون** أنه مات على الصليب أمام أعين الناس بجوار مجرمَيْن، وكأنه استحق العقاب بسبب جرم اقترفه، ولذلك كانت الأحداث التي وقعت والقصص التي حيكت عن هذه النهاية تمهيداً لهذا القبول، ولكن بولس عندما فسر هذه النهاية وأنها من أجل فداء الناس، تكاملت صورة المسيح بأنه إنما جاء ليفديهم، ولهذا صلب، ودعوى موته وقيامته المزعومة شجع على قبول التأويلات عن سبب موته وقيامته.

1- رسالة رومة 5: 8 وما بعدها.

2- الرسالة نفسها 6: 6 وما بعدها.

3- رسالة غلاطية 4: 4- 5.

والواقع أن بولس في هذا التفسير كان خاضعاً لتأثير الميراث العقائدي الذي كان شائعاً في بيئته، فقول بولس إن صلب المسيح كان للفداء والتكفير لم يكن غريباً، بل كان يظهر مدى تأثره بالفكر اليوناني، فقد نشأ في بيئة هي ملتقى الأفكار والعقائد المختلفة، نشأ في "طرسوس" المدينة الرواقية، وتشبع بمبادئ مختلف الفلسفات وأصول الديانات في الشرق، ولما قام بالدعوة عمل على تحويل العقيدة المسيحية إلى عقيدة تلائم تصورات وعقائد اليونان الوثنية.

" فقد كان الوثنيون القدماء يعتقدون أنهم بسفك الدم يتخلصون من خطاياهم، كما كانوا يعتقدون أن آلهتهم تألموا، لكي يخلصوا أتباعهم من خطاياهم، وكانت ألقاب مثل سوتر "المنقذ" واليوثريوس "المنجي" تطلق على هذه الآلهة.

وكان يتردد في أصداء الجو اليوناني المحيط به في طرسوس الحديث عن منقذ ينتشل البشرية، كما كانت علوم اليهود من بني جنسه، تتحدث عن قرب مجيء المسيح..."[1].

يقول ول ديورانت:"من حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية اليونانية **انتقلت من البيئة المدرسية في طرسوس إلى مسيحية بولس**، وكانت طرسوس كما كان في معظم المدن اليونانية وغيرها من العقائد **الخفية**، يعتقدون أن الله الذي يعبدونه **قد مات من أجلهم، ثم قام من قبره**، وأنه إذا دعي بإيمان حق وصحب الدعاء الشعائر الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم، وأشركهم معه في موهبة الحياة الخالدة المباركة، وهذه الأديان الغامضة الخفية هي التي أعدت اليونان لاستقبال بولس، وأعدت بولس لدعوة **اليونان**."[2]

فمن هنا نقول إن بولس قد أخذ فكرة الفداء والتضحية وتكفير الخطايا البشرية من تلك الوثنية التي كانت منتشرة في بيئته المريضة، وقد حاول بولس في دعوته أن يقرب الديانة النصرانية إلى عقول هذه الشعوب، فصور عيسى في صورة المصلوب فداء عن خطايا البشر، شأنه شأن آلهة المنطقة **التي تموت لتمنح الناس الخلود**.

ويرد القرآن هذه الدعاوى الباطلة والأفكار الخاطئة التي يقول بها المسيحيون، ويبين زيفها من عدة وجوه:

1- "تحريف رسالة المسيح ﷺ عبر التاريخ، أسبابه ونتائجه"، بسمة أحمد جستنيه، مرجع سابق، ص 171.

2- "قصة الحضارة"، ول ديورانت، الجزء 11، ص 250.

الوجه الأول - **ليس في القرآن ما يسمى الخطيئة الأصلية**، بل إن القرآن يرد أصلاً فكرة الخطيئة الأولى لما قرر في عدة آيات أن كل فرد مسؤول عن نفسه، فلا يؤاخذ بجريرة أسلافه، ولا يؤاخذ خلفاؤه بجريرته، قال تعالى:﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [1]، وقال تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [2]، فقرر ﷻ مبدأ المسؤولية الفردية في ارتكاب الذنوب، فكل إنسان هو وحده المسؤول عن كل عمل قام به، ولا يمكن البتة أن يتحمل غيره أخطاءه التي وقع فيها، ولا يمكن أبداً أن يتحمل هو أخطاء غيره، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [3].

وموقف القرآن هذا لا يتنافى مع العقل، ولا يرفضه من كانت له ذرة تفكير، يقول الشيخ رحمت الله الهندي في رده لفكرة الصلب بالأدلة العقلية:"إن كون الموت الصليبي كفارة الذنب غير معقول يقيناً، لأن المراد بهذا الذنب على زعمهم الذنب الأصلي الذي صدر من آدم عليه السلام، لا الذنب الذي يصدر من أولاده، لأن الأبناء لا يؤخذون بذنوب الآباء ولا العكس، بل هو خلاف العدل"[4].

الوجه الثاني - **ينفي القرآن استمرار خطيئة آدم عليه السلام**، حيث سرد لنا قصة خلق آدم عليه السلام، وكيف أكرمه الله تعالى، وكيف أمر الملائكة بأن يسجدوا له سجود الإجلال والاحترام، وكيف علمه الله تعالى الأسماء كلها، ثم أسكنه جنته ومعه زوجه، وكيف نسي،

1- سورة الإسراء، الآيات 13- 15.

2- سورة فاطر، الآية 18.

3- سورة لقمان، الآية 33.

4- "إظهار الحق" رحمة الله الهندي، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص 747.

ولم يكن له عزم فأخطأ، وأكل من الشجرة المنهي عنها، ثم تاب من خطيئته، واعترف بذنبه، وأناب إلى ربه، فتقبل الله تعالى توبته، وغفر له خطيئته، وقد وضح القرآن كل ذلك في موضعين:

- قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1).

- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (2).

فتنصيص القرآن على أن آدم عليه السلام تلقى من ربه كلمات ليغفر الله عز وجل له بها فعله وتنصيصه على أنه سبحانه وتعالى تاب عليه دليل على أن هذه الخطيئة لم يعد لها أثر في مصير آدم، فكيف تنتقل إلى ذريته من بعده؟.

ثم إن القرآن بين أن الله تعالى اصطفى آدم عليه السلام، وأكرمه هو وطائفة من ذريته، وفضله على العالمين، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (3).

وإضافة إلى هذا التكريم فقد كرم الله تعالى كل بني آدم، وفضلهم على كثير من مخلوقاته، وسخّر لهم ما في السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (4).

1- سورة البقرة، الآيات 35- 37.
2- سورة طه، الآيات 116- 122.
3- سورة آل عمران، الآية 33.
4- سورة الإسراء، الآية 70.

-أما الوجه الثالث - فقد كان القرآن مدركاً تماماً لما تمثله عقيدة الصلب عند النصارى، ومع ذلك أنكرها، وأعلن عدم صحتها **مع إجماع فرق النصارى عليها، فالباطل باطل، ولو أجمع عليه الجمع الكثير، والحق حق، ولو لم يقل به إلا واحد.**

ويقرر القرآن في قضية نهاية المسيح عليه السلام ثلاثة أمور:

- أولاً - أن المسيح عليه السلام لم يصلب قط، ولم يقتل قط، ولم يصب بأي أذى.
- ثانياً - أن شبه المسيح وقع على شخص آخر، فصلب بدلاً منه.
- ثالثاً - أن الله عز وجل قد أحاط نبيه عليه السلام بعنايته ورعايته، ورفعه إليه تكريماً له وحماية لتخليصه من أيدي الأعداء المتربصين له بالسوء.

وقد صرح القرآن بهذه الأمور في موضعين:

- الأول - قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [1].
- الثاني - قوله تعالى: ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [2].

وقد وقف المفسرون مع الآية الثانية، واختلفوا في مسألة الشبه الواردة فيها، فذهبوا إلى أن المصلوب لم يكن المسيح عليه السلام وإنما كان شخصاً آخر، ألقي عليه شبهه، ولكن اختلفت أقوالهم ورواياتهم في شخص الشبيه، يقول الشوكاني:"ولكن شبه لهم" أي: ألقي

1- سورة آل عمران، الآيات 52- 55.

2- سورة النساء، الآيات156- 158.

شبهه على غيره، وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه، وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه"[1].

ونجد بعض المفسرين يأتون بأخبار لا ندري كيف حصلوا عليها، وما مصادرهم التي نقلوا عنها، أمثال البغوي الذي يسوق هذه الرواية الغريبة، وهو يفسر لنا مسألة صلب المسيح قائلاً: "وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم" وذلك أن الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على الذي دل اليهود عليه، وقيل: إنهم حبسوا عيسى عليه السلام في بيت وجعلوا عليه رقيباً، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على الرقيب فقتلوه، وقيل غير ذلك."[2]، ويقول البيضاوي:"وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم "، روي (أن رهطاً من اليهود سبوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله، فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه إلى السماء، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي، فيقتل ويصلب ويدخل الجنة، فقام رجل منهم، فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب)، وقيل: (كان رجلاً ينافقه فخرج ليدل عليه، فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وقتل)، وقيل: (دخل طيطانوس اليهودي بيتاً كان هو فيه، فلم يجده، وألقى الله عليه شبهه، فلما خرج ظن أنه عيسى فأخذ وصلب)، وأمثال ذلك من الخوارق التي لا تستبعد في زمان النبوة."[3]، ويذهبون إلى أنه يهوذا الأسخريوطي كما ورد في إنجيل برنابا[4]، وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية روايات غريبة، لا قيمة لها، بعضها منقول عن إنجيل برنابا، وبعضها من باقي الأناجيل الأخرى[5].

أما ابن حزم فيرى في تفسير هذه الآية أن صالبي المسيح كانوا يعلمون أنه ليس هو، وإنما أوهموا الناس بذلك لوضع حد لما أثاره من نزاع في صفوف اليهود، يقول ابن

1- "فتح القدير الجامع بين فني الرماية والدراية من علم التفسير" محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، 1401هـ، الجزء 1، ص806.

2- تفسير البغوي (معالم التنزيل) الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة – الرياض، 1409هـ، الجزء 1، ص 306.

3- تفسير البيضاوي، مرجع سابق، الجزء 1،ص276.

4- جاء في إنجيل برنابا ص 308:"ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جمع غفير، فلذلك انساب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياماً، فلما رأى الله الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تسبح إلى الأبد.

ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق، وفي الوجه، فصار شبهاً بيسوع، حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا، أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا، وأجبنا: أنت يا سيد، هو معلمنا، أنسيتنا الآن؟، أما هو فقال مبتسماً: هل أنتم أغبياء، حتى لا تعرفوا يهوذا الأسخريوطي؟، وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا، لأنه كان شبيها بيسوع من كل وجه".

5- مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الأول ص 455-456.

حزم:"وهذا معنى قوله تعالى:"ولكن شبه لهم"، إنما عنى بذلك تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطؤوا عليه **هم شبهوا على من قلدهم**، فأخبروهم بأنهم صلبوه وقتلوه، وهم كاذبون في ذلك عالمون أنهم كذبة"[1]، وأبطل ابن حزم ادعاء النصارى في أن عملية الصلب حادثة متواترة، إذ يسلم بها جميع النصارى اعتماداً على أن حادثة الصلب المزعومة لم يشهدها نفر تتوافر فيهم الشروط الكافية التي يستحيل معها التواطؤ على الكذب، لأن "صلب المسيح عليه السلام لم يقله قط، ولا صح بالخبر قط، لأن الكافة التي يلزم قبول نقلها هي إما الجماعة التي يوقن أنها لم تتواطأ لتنابذ طرقهم وعدم التقائهم وامتناع اتفاق خواطرهم على الخبر الذي نقلوه عن مشاهدة، أو رجع إلى مشاهده ولو كانوا اثنين فصاعداً، فلما صح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام، فوجدناه كواف عظيمة صادقة بلا شك في نقلها جيلاً بعد جيل إلى الذين ادعوا مشاهدة صلبه، وهنالك تبدلت الصفة، ورجعت إلى شرط مأمورين مجتمعين، مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل"[2] .

أما أحمد ديدات فقد قدم ثلاثين فكرة بيَّن فيها أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب[3]، **وأن المدة التي بقي في أثنائها على الصليب لم تكن كافية لأن يلقى حتفه** بدليل أن المسيح لم تصب ساقاه بالكسر، كما يصاب بذلك المصلوبون عادة، **كما كان الشخصان المصلوبان معه لا يزالان على قيد الحياة وقت إنزاله، بل أكثر من ذلك جرى إنزاله من الصليب بسرعة، ودفن في قبر هو في الحقيقة حجرة فسيحة** مكنته بمساعدة صاحبيه الذين أنزلاه من الصليب من استرجاع حيويته، ومما يدل أيضاً على أنه لم يمت على الصليب تعجب إمبراطور الرومان بيلاطس حين طلب منه يوسف الأريماتي جسد يسوع بحسب رواية مرقس: "فتعجب بيلاطس أنه مات كذا سريعاً، فدعا قائد المئة وسأله: هل له زمان قد مات"[4]، فبيلاطس كان يعرف بحكم تجربته وخبرته أن أي رجل لا يمكن أن يموت على الصليب في **غضون ثلاث ساعات**، وقد أدرك اليهود أن المسيح لم يمت، ولكن بعد فوات الأوان، يقول متى:"وفي الغد أي بعد التهيئة للسبت، ذهب رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس وقالوا: تذكرنا يا سيد أن ذلك الدجال قال وهو حي: سأقوم بعد

1- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، ابن حزم، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص124.

2- المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص 123.

3- "مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء"، أحمد ديدات، ترجمة: علي الجوهري، دار الفضيلة.

4- مرقس 15: 44.

ثلاثة أيام، فأصدر أمرك بحراسة القبر إلى اليوم الثالث، لئلا يجيء تلاميذه ويسرقوه، ويقولوا للشعب: قام من بين الأموات، فتكون هذه الخدعة شراً من الأولى"[1].

هكذا برهن أحمد ديدات على عدم صلب المسيح من نصوص الأناجيل منطلقاً من قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [2]، وقوله تعالى عن تآمر اليهود لقتل المسيح وإرادة الله ﷻ عكس ذلك: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [3].

إن القرآن نفى وأبطل في مناظرته للنصارى كبرى عقائدهم عقيدة الصلب، العقيدة التي جعلوها صُلب دينهم من دونها لن ينال أحد الخلاص الأبدي، وجعل كل فرد مسؤولاً عن أعماله، ولا أحد يتحمل أخطاء غيره.

1- متى 27: 62- 64.

2- سورة النساء، الآية 157.

3- سورة آل عمران، الآية 54.

الخاتمة

عملت في هذه الدراسة على إبراز منهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، بتأكيد أن **القرآن تفرد من بين الكتب السماوية (التوراة والإنجيل) بطرحه منهج الاستدلال لمختلف القضايا العقدية الكبرى**، وصاغ نظرية متكاملة عن الحوار، وذلك من حيث تقديمه للمنهج والقواعد التي ينبغي أن يبني عليها، ومن حيث عرضه لأساليب الحوار وتقديم نماذج منه، وأن ليس ثمة كتاب آخر يعترف بالاختلاف، ويعطي للمخالف حق الوجود وحق التعبير من دون أدنى قيد أو شرط سوى هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وخلال رجوعي إلى القرآن نفسه تأكد لي فعلاً أنه أعطى المشروعية لعلم مقارنة الأديان، وأجاز للمسلمين الخوض في هذا العلم من دون حرج لبيان الحقيقة وكشفها، كما وضع النواة الأولى لهذا العلم في الفكر الإسلامي بتناوله علم تاريخ الأديان وعلم مقارنة الأديان، وأسس الحوار بين الأديان، فهو في الجانب الذي يتناول فيه تاريخ الأديان عرض سير الأنبياء وتاريخ بني إسرائيل وتاريخ بعض الأمم في سرد بعض الأحداث الدقيقة التي جرت بينهم وبين أنبيائهم، وفي الجانب الذي يتناول فيه علم مقارنة الأديان قدم الأديان الكتابية وغير الكتابية، وعرض أهم القضايا التي تتميز بها، قاصداً من ذلك إظهار أهم الوجوه السلبية فيها وإبرازها، أما في المجال الذي يتناول فيه الحوار بين الأديان فقد قعّد للحوار وبيَّن أصوله بوقوفه على معنى الاختلاف وعدّه سنة إلهية، وفي دعوته إلى الحوار اعتمد القرآن وسيلة منهجية، هي وسيلة الإقناع مطالباً مخالفيه بالحجة والبرهان: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [1]، ملزماً إياهم بضوابط الحوار والمناظرة، فلا يترك المجال للجدال العقيم ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [2]، وهدفه واضح هو البحث عن الحقيقة والكشف عنها.

1- سورة البقرة، الآية 111، طالب الله عز وجل المخالفين بالبرهان في القرآن الكريم في هذا الموضع وفي مواضع ثلاثة أخرى، هي سورة الأنبياء الآية 24، وسورة النمل، الآية 64، وسورة القصص، الآية 75، والخطاب كان موجهاً في الأولى إلى اليهود والنصارى، وفي الثانية والثالثة للمشركين، وفي الرابعة إلى الكفار عموماً يوم القيامة.

2- سورة آل عمران، الآية: 61.

ولإيمانه بأن العقل هو الرابط المشترك بين جميع الناس جعله الحكم والمرجع للفصل في كل النزاعات العقدية، لذلك نجد دعوة القرآن موجهة لذوي الألباب من دون غيرهم، فوصف كل مغيِّب لعقله بالضلال الذي لا يختلف عن ضلال الدواب: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (1)، فالعقل هو الحكم المحايد الذي تقبل به كل الأطراف ويحتكمون إليه، إذ لا يمكن أن نحتكم إلى شيء غير مسلَّم به عند أحد الأطراف، كأن نحتكم إلى القرآن مثلاً في الحوار مع غير المسلم الذي لا يعترف به أصلاً، مثلما لا يقبل المسلم الاحتكام إلى نص لا يؤمن بصحته كالتوراة.

كما دعا القرآن أيضاً إلى تدبر معانيه المحكمة وألفاظه البليغة للبحث عن أي اضطراب أو اختلاف أو تعارض، وبيَّن أن لو كان مصدره غير الله لوجد فيه الخصوم اختلافات وتناقضات كثيرة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (2)، واضعاً بذلك قواعد منهج علمي دقيق لدراسة النصوص الدينية ونقدها، وهو منهج نقد المتن أو النقد الداخلي للنصوص، بل عدّ عدم التدبر دليلاً على انسداد الفكر وقصور العقل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (3)، وفي دعوته إلى تدبر القرآن للتأكد من صحة نسبته إلى الله تعالى دعوةٌ ضمنية إلى تدبر كل نص ديني يدعي أنه منزل من عند الله تعالى للكشف عن حقيقة هذا النص، فإذا تناقض هذا النص فإن الباحث عن الحقيقة يصل إلى نتيجة حتمية، وهي أن هذا النص ليس نصاً منزلاً، أو ليس وحياً من عند الله تعالى، بل هو نتاج فعل بشري.

هذا الطرح الذي قدمه القرآن أثار عدة تساؤلات حول النصوص الأخرى المتواجدة في ساحة الأديان السماوية، والتي تدّعي أنها وحي منزل من عند الله تعالى، فكأنه وضع ميزاناً للمقارنة بينه وبين هذه النصوص اليهودية والمسيحية توراة وإنجيلاً لمعرفة **أي نص من هذه النصوص هو الوحي الحقيقي**، كاشفاً عن حقيقة مهمة، أثبت فيها أن هذه النصوص التي يدّعي أهل الكتاب أنها نصوص مقدسة، قد خضعت لكثير من التغيير والتحريف والتبديل، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ

1- سورة الفرقان، الآية: 44.

-2سورة النساء، الآية: 82.

3- سورة محمد، الآية: 24.

مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ (1)، ومع ذلك دعا إلى مجادلتهم بالتي هي أحسن، حتى لا يؤجج في قلوبهم العصبية، وهو يوجه لهم أصابع الاتهام في مسؤوليتهم عن هذا التحريف: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (2).

ووقف القرآن موقف القوة أمام أهل الكتاب، ودعاهم إلى قبول الحق والإذعان له، وإلى نبذ العناد وتركه، وفق قاعدة اللقاء والتقارب المبنية على الأسس التوحيدية التي دعا إليها كل الأنبياء والرسل والمسطرة في قول الله عز وجل: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (3).

وقد خرجت الدراسة بجملة من النتائج كان أهمها:

- أن القرآن هو المؤسس الحقيقي لعلم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي.
- أن القرآن هو المصدر الأول لعلماء الإسلام الذي استمدوا منه أدلتهم وحججهم في الرد على اليهود والنصارى، وخلاله تعرفوا على المخالف، وانفتحوا عليه متبعين في ذلك الخطوات التي خطها القرآن في مخاطبة الآخر ودعوته إلى الحق.
- أن القرآن قد أثار مجموعة من القضايا مستعملاً أسلوب الحوار والمناظرة لمناقشة ما يعدّه هؤلاء المخالفون أمراً مسلماً به ونقده، أو أمراً حاولوا إخفاءه وعدم كشفه للآخر لضعف الأدلة والحجج والبراهين الكافية في الإقناع.
- أن القرآن نبه على كثير من الأفكار، أهمها انحراف أتباع الدين اليهودي والمسيحي عن الخط المستقيم بفعل ما أحدثوه في دينهم من تحريف لكتبهم وتكذيبهم لأنبيائهم اتباعاً للهوى قصد تضليل الناس.
- أن القرآن استعمل مع هؤلاء المخالفين الحجج الحسية والعقلية والتاريخية لرد ادعاءاتهم وتصحيح اعتقادهم في حق الله تعالى وفي حق الأنبياء الكرام وفي حق الوحي.

1- سورة آل عمران، الآية: 78.

2- سورة العنكبوت، الآية: 46.

3- سورة آل عمران، الآية: 64.

- أن القرآن استعمل المناهج العلمية التي لم تكتشف إلا حديثاً كالمنهج التاريخي الوصفي والمنهج التحليلي المقارن والمنهج النقدي والمنهج الجدلي التناظري.

- أن القرآن أكد مسائل مهمة في علاقته بالكتب السماوية السابقة وعلاقة المسلمين بأهل الكتاب والتي يمكن إجمالها في ما يلي:

✓ أن الدين عند الله واحد، هو دين جميع الأنبياء والمرسلين وهو الإسلام.

✓ أن أهل الكتاب بدلوا دينهم وأظهروا الفساد.

✓ أن عدم اتباع أهل الكتاب لدين الإسلام سببه العناد والجحود.

✓ أن العقائد اليهودية عرفت زيفاً كبيراً.

✓ أن كل الدعاوى اليهودية غير قائمة على أسس علمية.

✓ أن النصارى ارتدوا عن عقيدة التوحيد، وغالوا في شخص المسيح مضاهين بذلك قول الوثنيين.

كانت تلك بعض النتائج المستخلصة من دراستنا لمنهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، والتي نرى ضرورة استمرارية البحث فيها، وذلك من أجل إبراز هذا المنهج الرباني والاستفادة منه في رد كل الدعاوى الاستشراقية [1] التي تحاول التنقيص من النص القرآني من قبيل ادعاء تعلُم النبي عليه السلام من اليهود أو النصارى، أو اقتباسه من كتبهم، أو للرد على تلك الدعاوى المسيحية التي تسعى إلى بيان أن القرآن إنما انتقد بعض الفرق المسيحية الخارجة عن المسيحية الرسمية، أي مسيحية الكنيسة في محاولة إبعاد نقد القرآن عنها، قاصرة إياه على هؤلاء "الهراطقة" من اليعقوبية والنسطورية الذين واجههم القرآن في جزيرة العرب، وذلك خلال المقارنة العلمية بين القرآن والكتب السماوية السابقة، وخلال المقارنة بين الأصول العقدية الكبرى للديانات السماوية الثلاث كالتوحيد والنبوة والبعث، لأن هذا النوع من المقارنة سيبرز لنا بلا شك كذب الادعاءات الكنسية، وسيظهر أن هذه الأخيرة هي المقصودة بهذا الرد القرآني، الذي وجّه نقده للأقوال بغض النظر عن قائليها، وأن الكنيسة معنية بهذا النقد داخلة فيه مادامت تقول الأقوال نفسها.

1- كل الدعاوى الاستشراقية الحالية هي تكرار لما سبقت إثارته من المسيحيين الأوائل أمثال يوحنا الدمشقي الذي كتب: "**L'islam l'hérésie 100**" عاداً أن الإسلام هرطقة مسيحية لا غير، بل كلها دعاوى أشار إليها القرآن نفسه على لسان المشركين وأهل الكتاب؛ ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ** ﴾ النحل، الآية103، ﴿ **وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ الفرقان، الآية5.

لائحة المراجع والمصادر العربية

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

- الكتاب المقدس: جمعية الكتاب المقدس، لبنان، 1997م، إصدار دار الكتاب المقدس الشرق الأوسط.

العهد القديم الإصدار الثاني، 1995م، الطبعة الأولى.

العهد الجديد – الإصدار الرابع 1993م، الطبعة الأولى.

1. "أبحاث المجتهدين في الخلاف بين النصارى والمسلمين"، نيقولا يعقوب غبريل، مصر، 1901م.

2. "الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على اليهود والنصارى" للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، دراسة وتحقيق: مجدي محمد الشهاوي، مكتبة القرآن- القاهرة.

3. "الأدب المفرد" محمد بن إسماعيل البخاري، مراجعة : محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية- بيروت، 1409هـ - 1989م.

4. "إظهار الحق" الشيخ رحمة الله الهندي، دراسة وتحقيق: محمد أحمد خليل ملكاوي، دار الحديث القاهرة - رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء الرياض، الطبعة الثالثة: 1414هـ-1994م.

5. "إعجاز القرآن" للإمام الباقلاني، تحقيق أحمد صقر، سلسلة ذخائر العرب:12، دار المعارف، طبعة 1963م.

6. "الأعلام"، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة.

7. "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام"، القرطبي، تقديم وتحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

8. "إفحام اليهود وقصة إسلام السموءل ورؤياه النبي ﷺ" السموءل بن يحيى المغربي، تحقيق ودراسة محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل- بيروت، مكتبة الزهراء، القاهرة، الطبعة الثالثة 1410هـ- 1990م.

9. "الألوهية والحاكمية دراسة علمية من خلال القرآن الكريم"، سامر إسلامبولي، دار الأوائل- سورية، الطبعة الأولى، 2000م.

10. "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي" حسن إبراهيم حسن، دار الجيل-بيروت، مكتبة النهضة المصرية-القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة، 1416هـ-1996م.

11. "تاريخ يوسيفوس بن كربون اليهودي "، بيروت، المطبعة العلمية ليوسف إبراهيم صادر، المكتبة العمونية.

12. "تأويل مشكل القرآن"، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة ابن قتيبة، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، طبعة 1373هـ-1954م.

13. "تثبيت دلائل النبوة" للقاضي عبد الجبار الهمداني، تحقيق وتقديم عبد الكريم عثمان، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان د.ت.

14. "تحريف رسالة المسيح ﷺ عبر التاريخ أسبابه ونتائجه"، بسمة أحمد جستنيه، دار القلم، الطبعة الأولى، 1420هـ-2000 م.

15. تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة – الرياض، 1409هـ.

16. "تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، ناصر الدين الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ- 1988م.

17. "التفسير التطبيقي للكتاب المقدس" التعريب والجمع التصويري والمونتاج والأعمال الفنية، القاهرة - مصر، شركة: Master Media (Printed in Great Britain 1997 .

18. "التفسير الحديث"، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، طبعة، 1381هـ-1962م.

19. تفسير الفخر الرازي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1405هـ-1985م.

20. "تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار"، محمد رشيد رضا، بيروت- دار المعرفة، الطبعة الثانية.

21. "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج"، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر- دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ-1991م.

22. "التفكير الفلسفي في الإسلام"، عبد الحليم محمود، دار النصر-القاهرة، الطبعة الثالثة، 1387هـ-1968م.

23. "تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء"، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر-بيروت، الطبعة الأولى، 1990م.

24. "التوحيد والتثليث في حوار المسيحية والإسلام"، محمد عبد الحميد العبد، دار الطليعة الجديدة - دمشق، الطبعة الأولى، 2003م.

25. " تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد"، سلمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة- الرياض.

26. "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، ابن تيمية، مطبعة المدني - القاهرة، 1379هـ-1959م.

27. "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" عباس محمود العقاد، دار القلم- القاهرة، الطبعة الثانية، 1382هـ-1962م.

28. "الحوار في القرآن قواعده أساليبه معطياته"، محمد حسين فضل الله، دار التعارف المطبوعات، الطبعة الخامسة، 1987م.

29. "حياة السيد المسيح في القرآن" السيد حسين نجيب محمد، دار الهادي - بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م.

30. "الجامع لأحكام القرآن"، أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الخامسة، 1417هـ- 1996م.

31. "الخديعة الكبرى، هل اليهود حقاً شعب الله المختار؟" محمد جمال طحان، دار صفحات- دمشق، الطبعة الأولى، 2007م.

32. "دراسة في الأناجيل الاربعة"، محمد السعدي، دار الثقافة - قطر، الطبعة الأولى، 1405هـ- 1985م.

33. "دراسة في السيرة"، عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة – دار النفائس، الطبعة العاشرة، 1406هـ-1986م.

34. "دلالة الحائرين"، موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي، عارضه بأصوله العبرية والعربية د. حسين أتاي، مكتبة الثقافة الدينية.

35. "الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان"، محمد عبد الله دراز، دار السعادة- مصر، 1389هـ-1969م.

36. "الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ"، علي بن ربن الطبري، تحقيق وتقديم عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الرابعة، 1402هـ-1982م.

37. "الرحيق المختوم"،صفي الرحمن المباركفوري، دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ-1991م.

38. "رسالة في اللاهوت والسياسة"، سبينوزا، ترجمة وتقديم: د. حسن حنفي، مراجعة: د. فؤاد زكريا، دار الطليعة بيروت، الطبعة الرابعة، أبريل، 1997م.

39. "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي- بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، 1405هـ- 1985م.

40. "السنن" الترمذي، مراجعة أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث- بيروت.

41. "السنن الكبرى" النسائي، مراجعة : د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، 1411هـ - 1991م.

42. "سوسنة سليمان في العقائد والأديان"، نوفل أفندي نوفل، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1922م.

43. السيرة النبوية لابن هشام، قدم لها وعلق عليها وضبطها: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت - دار الجيل.

44. "الشخصية اليهودية من خلال القرآن تاريخ وسمات ومصير"، صلاح عبد الفتاح الخالدي، سلسلة من كنوز السنة 3، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، 1419هـ-1998م.

45. "الصابئة في ماضيهم وحاضرهم" السيد عبد الرزاق الحسني، مطبعة العرفان، صيدا-لبنان،، الطبعة الرابعة، 1390هـ-1970م.

46. "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، أبو العباس أحمد القلقشندي الشافعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

47. "ظاهرة النص القرآني، تاريخ ومعاصرة رد على كتاب"النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة" للطيب تيزيني "، سامر إسلامبولي، دار الأوائل- دمشق، الطبعة الأولى، 2002م.

48. "العبقريات الإسلامية- مطلع النور " عباس محمود العقاد، بيروت، الطبعة الثانية 1968.

49. "العرب واليهود في التاريخ" أحمد سوسة، دار العربي، الطبعة الرابعة، 1975م.

50. "العقيدة الإسلامية وأسسها"، عبد الرحمن حبنكة الميداني، سلسلة طريق الإسلام، دار القلم- دمشق، الطبعة الخامسة، 1408هـ-1988م.

51. "العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية"، سعد الدين السيد صالح، مكتبة الصحابة- جدة، مكتبة التابعين- القاهرة، 1983م.

52. "مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء"، أحمد ديدات، ترجمة: علي الجوهري، دار الفضيلة.

53. "العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها" د. أحمد بن عبد الله الزغيبي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1418هـ-1998م.

54. "الفارق بين المخلوق والخالق"، عبد الرحمن بن سليم البغدادي الشهير بباجه جي زاده، ضبط أصوله وعلق عليه أحمد حجازي السقا، مصر، الطبعة الثانية، 1407هـ-1987م.

55. "فتح القدير الجامع بين فني الرماية والدراية من علم التفسير"، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، 1401هـ.

56. "الفرقان والقرآن"، الشيخ خالد عبد الرحمن العك، دار الحكمة، الطبعة الأولى، 1414هـ-1994م.

57. "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، الإمام أبي محمد علي بن حزم الظاهري الأندلسي، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، الطبعة الثانية، 1416هـ-1996م.

58. الفهرست لابن النديم، دار المعرفة، بيروت، 1398هـ-1978م.

59. "في ظلال القرآن"، سيد قطب، دار الشروق-القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة.

60. "قاموس الكتاب المقدس"، جورج بوست، المطبعة الأمريكانية- بيروت، 1901م.

61. "القرآن والتوراة، أين يتفقان وأين يفترقان؟"، حسن الباش، سلسلة مقارنة الأديان، دار قتيبة، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2000م.

62. "القرآن والمسيحية في الميزان"، أحمد عمران، الدار الإسلامية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1416هـ-1995م.

63. "قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام"، توفيق الطويل، دار الفكر العربي- مطبعة دار نشر الثقافة، الإسكندرية، 1366هـ-1947م.

64. "قصة الحضارة"، ول ديورانت، ترجمة عبد الحميد يونس، طبعة القاهرة، 1971م- 1972م.

65. "قضية الألوهية بين الفلسفة والدين، الجزء الأول، الله ذاتاً وموضوعاً" عبد الكريم الخطيب، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، 1963م.

66. "كتاب الله في إعجازه يتجلى - وردود على أحدث الغارات المستهدفة إعجاز القرآن وحفظه في دراسات علمية مقارنة تثبت إعجاز القرآن التاريخي والبياني والتأثيري والعقدي"، غسان حمدون، السلسلة الإسلامية العلمية المقارنة 3، الطبعة الأولى، 1422هـ-2002م، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء.

67. "الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، الإمام أبي القاسم جار الله الزمخشري، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415 هـ- 1995م.

68. "الكنز المرصود في قواعد التلمود"، ترجمة الدكتور يوسف نصر الله، قدم له مصطفى أحمد الزرقا والدكتور حسن ظاظا، دار القلم- دمشق، دار العلم- بيروت، الطبعة الثانية، 1999م.

69. "لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة"، محمد قطب، الدار البيضاء- المكتبة السلفية، طبعة 1993م.

70. "الله جل جلاله بين التثليث والتوحيد" محمد أمين جبر، النهار للطبع والنشر والتوزيع، طبعة 1420هـ-1999م.

71. "الله: كتاب في نشأة العقيدة الإلهية"، عباس محمود العقاد، دار المعارف-مصر، الطبعة السادسة.

72. "ما يقال عن الإسلام" عباس محمود العقاد، سلسلة دار الهلال، العدد 189 دجنبر، 1966م.

73. "محاصرة وإبادة موقف الغرب من الإسلام"، زينب عبد العزيز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1414هـ- 1993م.

74. "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، القاضي أبو محمد عبد الحق ابن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ-1993م.

75. "محمد الرسالة والرسول"، نظمي لوقا، الطبعة الأولى، 1959م.

76. "المختار في الرد على النصارى"، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق ودراسة: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل بيروت- مكتبة الزهراء القاهرة، الطبعة الأولى، 1411هـ-1991م.

77. مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم- بيروت، الطبعة السابعة 1402هـ- 1981م.

78. "مختصر صحيح البخاري" المسمى:"التجريد الصريح لأحكام الجامع الصحيح" زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1994م.

79. "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، دار النشر: مؤسسة قرطبة-مصر المصورة عن الطبعة الميمنية.

80. "المسيحية والإسلام والاستشراق"، محمد فاروق الزين، دار الفكر- دمشق، الطبعة الأولى، 1421هـ-2000م.

81. "الملل والنحل"، الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة- بيروت.

82. "موجز الأديان في القرآن"، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة -بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ- 1998م.

83. "موقف ابن تيمية من النصرانية"، مريم عبد الرحمن عبد الله، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1418هـ-1997م.

84. "الميزان في مقارنة الأديان- حقائق ووثائق"، محمد عزت الطهطاوي، دار القلم دمشق- الدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ-1993م.

85. "النبوة والأنبياء"، محمد علي الصابوني، الطبعة الثانية، 1400هـ-1980م.

86. "ولادة إله"، جون بوتيرو، ترجمة جهاد الهواش وعبد العالي عباس، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، سورية، دمشق، الطبعة الأولى، 1999م.

87. "اليهود في القرآن"، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، الطبعة الحادية عشرة، شباط، 1986م.

لائحة المراجع الأجنبية

88. **Dictionnaire Biblique Universel, L.MONLOUBOU, F.M. DU BUIT, o.p ; Desclée Paris 1984**

89. **Dictionnaire de la Bible réalisé par F. VIGOUROUX avec le concours d'un grand nombre de collaborateur fascicule XXXIX et dernier. TUTEUR – ZUZIM, Paris LETOUYEY ET Ané Editeur 1912**

90. **Nouvelle introduction de la Bible, Wilfrid HARRINGTON, traduit de l'anglais par Jacques WINANDY, Préface de ROLANDE DE VAUX; édition du SEUIL, Paris 1971**

91. **Paul KHOURY, Paul d'Antioche ; eveque melkite de sidon (XIIe s.), Beyroute imprimerie catholique, Librairie orientale 1964, recherche tome XXIV**

92. **Youssef KELLAM, Universalité des religions: le Christiansme est-il catholique ou pretention du catholicisme? Revue de demain, N 24, 14/10 Au 20/10/2000.**

المواقع الإلكترونية

93. **http://www.amrani.org/livers/ibnhazem.htm**

94. **http://www.iu.edu.sa/Magazine/46/8.htm**

95. **http://realislam0.tripod.com/mosh_zekr.htm**

المحتويات